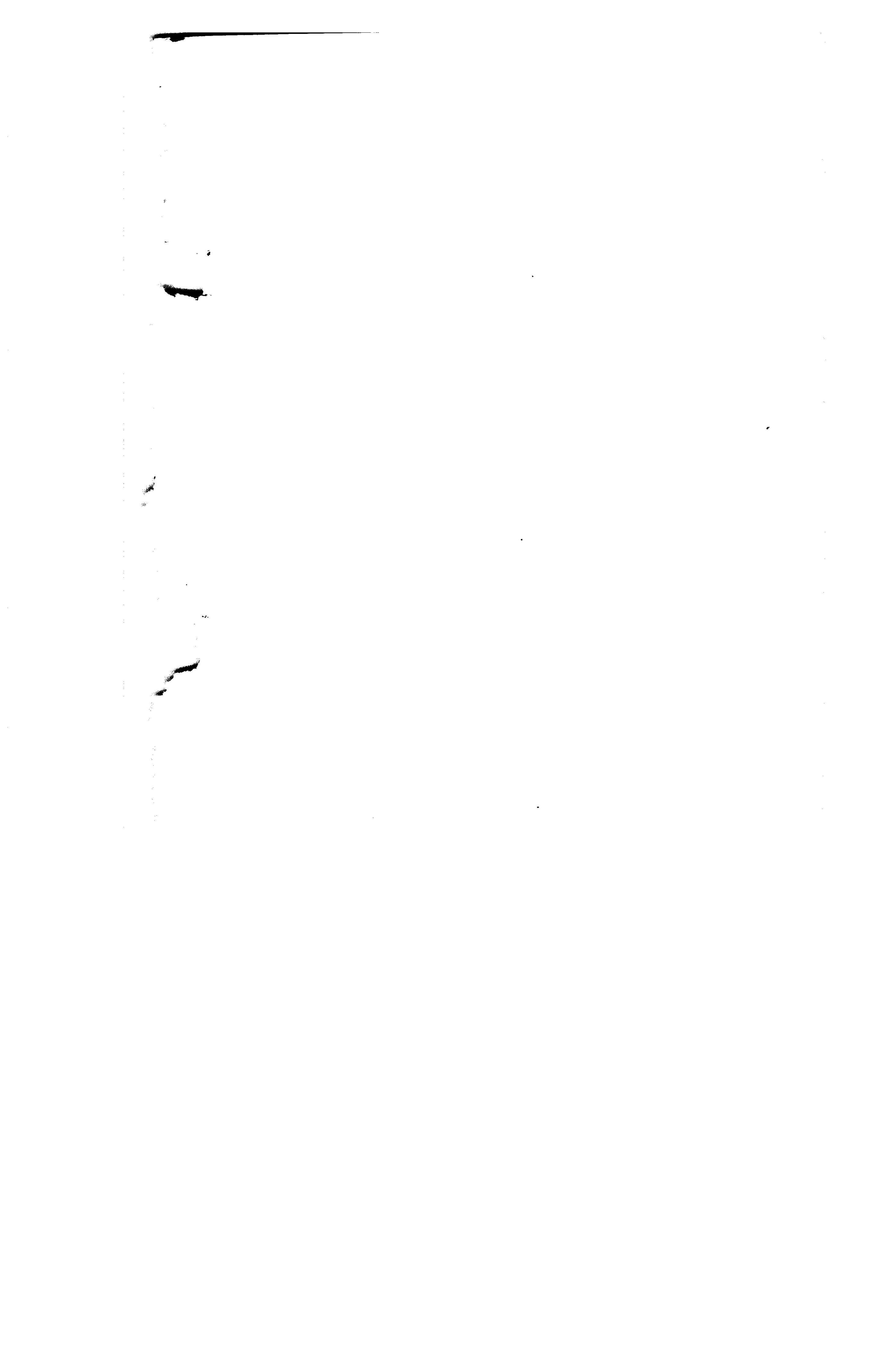
إشكالية التدافع الحضارى
بيـــن
الإسلام والغرب

الدكتور/ عبد العزيز عبد اللطيف المرشدى
الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة
جامعـــة الأزهـــر



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه الكريم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[الحجرات :١٣].

والصلاة والسلام على إمام المرسلين وخاتم النبيين الذي أقام بشريعته حضارة كانت وما زالت مصدر إشعاع للنور والهداية للناس في دنياهم وأخراهم . وبعد .

فقد كثر الحديث في الآونة الأخير عن الحضارات وصدامها . فسمعنا في الأدبيات الإعلامية والسياسة . عن صدام الحضارات ، وصراع الحضارات ، وحوار الحضارات ، والتدافع الحضاري ، والتواصل الحضاري... إلى آخر هذه المصطلحات التي لم تكن بهذا الزخم من قبل .

ولا شك أنه بعد أن صدر عن السياسي والأكاديمي الأمريكي هنتجنتون كتابه " صراع الحضارات " اتجهت أنظار العالم نحو الإسلام وحضارته وخاصة وأن هنتجنتون كان وكأنه يستعدي العالم على الحضارة الإسلامية الذي يزعم أنها ضد تقدم ورقي ورفاهية الإنسانية .

وزاد من حدة فكرة الصراع بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية ما أعلنه العالم الأمريكي الجنسية الياباني الأصل (فوكا ياما) والذي قال بنظرية نهاية التاريخ وأن المنظومة الغربية هي الأجدر بالبقاء في حلبة الصراع القائم .

ثم جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ لتؤكد نظرية الصراع هذه الذي تنبأ بها هنتجنتون وأشياعه فأهتبل الغربيون هذه الفرصة وشنوا حملة شعواء

على الإسلام وأهله وحضارته . وهذه الحملة كانت ومازالت على جميع الأصعدة العسكرية والاقتصادية والإعلامية .

ونظرية الصراع بين الغرب والإسلام ليست جديدة سوى في المصطلح . وإلا فإن المفهوم ظل كامناً في نفسية وعقلية الإنسان الغربي يخرجه إلى الوجود حين تتاح له وسائل الغلبة والقهر.

وبإمكاننا إيجاد آلاف الدلائل على أن ما أعلنه هنتجنتون وفوكاياما لم يكن جديداً ولنضرب لذلك مثلاً .

فهذا أرنست رينان يقول في محاضرة له بعنوان نصيب الشعوب السامية في تاريخ الحضارة في ١٨٦٢/٢/٢٣.

(أيها السادة : في هذا الوقت المناسب الشرط الأساسي لتمكين الحضارة الأوربية من الإنتشار هو تدمير كل ماله علاقة بالسامية الحقة ، تدمير سلطة الإسلام الثيوقراطية . لأن الإسلام لا يستطيع البقاء إلا كدين رسمي ، وعندما يختزل إلى وضع دين حر وفردي فإنه سينقرض ، وهذه الحرب الدائمة ، الحرب التي لن تتوقف إلا عندما يموت آخر أولاد إسماعيل بؤساً أو يرغمه الإرهاب على أن ينتبذ في الصحراء مكاناً قصياً ... أيها السادة الإسلام هو النفي الكامل لأوربا ، الإسلام هو التعصب ، الإسلام هو احتقار العلم ، والقضاء على المجتمع المدني، إنه سذاجة الفكر السامي المرعبة ضيق الفكر الإنساني، الذي يغلقه دون كل فكرة دقيقة . دون كل عاطفة لطيفة ، دون كل بحث عقلاني ، ليضعه أمام حشو سرمدى ... المستقبل إذا لأوربا ولأوربا وحدها ، ستفتح أوربا العالم وتنشر فيه الدين الذي هو الحق والحرية واحترام البشر) أنتهي كلام رينان[1].

---

(١) نقلاً من كتاب الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي، ص٤١ . للدكتور محمد إبراهيم الفيومي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. القاهرة.

ولا أدري أي مبرر جعله ينطق بهذه السخافات التي لا سند لها من عقـــل أو نقل أو واقع أو تاريخ .

ولكن كما يقول أحد الباحثين تعليقاً على هذا النص . لا شك أن هذا النـص يلخص تلخيصاً باهراً كل الشعور بالذنب الغربي المسقط على الإسلام، كبش الفداء، الذي تقدم عنه صورة مشوهة تشويهاً عميقاً .

ونحن نزيد على ذلك بأن هذا النص وأمثاله كثيراً إنما يعبر عن حالة نفســـية ملؤها الحقد والكراهية من جانب ونظرة الاستعلاء والغطرسة من جانب آخر.

فقد قر في معتقد الغربيين الشعور بالعلو والسيادة وهيمنت على مشـــاعره أن كل ما يصدر عنه هو الأفضل وهو الأصح وهو الدواء الناجع لإصلاح كل فاســـد ومن هنا فإنهم محور الكون كله وأن على الآخرين أن يدوروا في فلكهم وإلا أصيـــب الكون بالبوار ولذلك فإن عقاب من تسول له نفسه أن يخرج عن هذا المعتقد الهـلاك السريع لأنه يصادم العدالة المطلقة.

وكأن فرعون بعث وعاد من جديد وأن من لم يكن معه فهو ضده .

والحق أننا نظلم فرعون لأنه مع استعلائه وكونه الآمر الناهي وقوله (ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد). مع ذلك أخَّر خصمه وأمهله حتى يـــأتي بالدليل (قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين).

معنى ذلك إننا أمام حضارة مادية قاهرة تقف الفرعونية صاغرة أمام طغيانها.

وهكذا تنظر الحضارة الغربية إلى الآخر على أنه هامش ليس عليـــه ســوى السمع والطاعة وإلا ذاق من العذاب مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علـــى قلب بشر.

لكن هل هذه النظرة العدائية الاستعلائية موجودة في المنظومة الإسلامية وداخل إطار الإسلام وحضارته.

أظن أن الإسلام وحضارته أبعد ما يكونان عن القهر والتسلط ومحاولة إزاحة الأخر من الوجود . حيث إن الكل لأدم وأدم من تراب، (ولقد كرما بني آدم)، (ولا إكراه في الدين)، (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)، (ومتى استعبدتم الناس وقد ولدقم أمهاقم أحرار). وحين قام صلى الله عليه وسلم لجنازة يهودي وسئل فأجاب أليست نفساً ... إلى آخر الآيات والأحاديث والمواقف التي تشير إلى البون الشاسع بين التعامل الحضاري من جانب الإسلام ، ومن جانب الغرب.

ومن هنا كان اختياري لمصطلح التدافع لأن هذا المصطلح يتضمن كل ألوان التعامل من أقصى اليسار حيث استخدام القوة العسكرية وهو ما طبقته الحضارة الغربية في تعاملها مع الحضارة الإسلامية . إلى أقصى اليمين حيث الحوار والجدال بالتي أحسن ، وهذا ما طبقته الحضارة الإسلامية في تعاملها مع الآخر خاصة الحضارة الغربية .

ولهذا جاء في القرآن الكيم لفظ التدافع أو الدفع يعبر عن النمطين من السلوك.

- استعمال القوة والرهبة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ [سورة البقرة:٢٥١].

- واستعمال الحوار واللين والرأفة في قوله تعالى:﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾[سورة فصلت:٣٤]

ولذا يمكن القول إن الصراع بين الحضارتين الغربية والإسلامية لم يكن منهجاً لكلا الطرفين بل كان من الطرف الغربي صراعاً بداية بالحروف الصليبية ومروراً بمحافل المستشرقين والمنصرين والهجمات الاستعمارية والغزو الفكري والثقافي.

وانتهاء بالهجمة الشرسة على الإسلام والمسلمين تحت زعم محاربة الإرهاب ومحاولة أسلمة الإرهاب وجعله ديناً يدعوا للتطرف والإرهاب والحرب وحمل السلاح ... هذه ما تراه الحضارة الإسلامية من الحضارة الغربية وهذه هي أساليب الغرب في التعامل أما الحضارة الإسلامية فإن الغرب يجني ثمار هذه الحضارة منذ عصور الظلام وعصر النهضة ولا زال أصحاب الحضارة الإسلامية يدفعونها قسراً وبالتي هي أحسن فخيرنا إليهم ذاهب وشرهم الينا وارد .

وهذا البحث سوف يكشف النقاب عن كثير من قضايا الصراع والحوار بين الحضارتين ثم هو أخيراً يوضح إمكانية التفاهم بين الإسلام والغرب وذلك بشروط حتى يمكن الاستفادة والإفادة ، والتحاور بين الطرفين دون أن يكون لأحدهما سيادة على الآخر.

فالحضارة في الأصل قامت على التواصل والتحاور دون الصراع والصدام ولئن جنحت بعض هذه الحضارات إلى ما يسمى الصدام فلابد من إرشادها إلى الأصوب.

وقد اخترت أيضاً الإسلام في مواجهة الغرب مع أن الطبيعي أن تكون المقابلة بين منظومتين كالإسلام والمسيحية، أو بين مجموعتين كالمسلمين والغرب. وذلك لأن الإنسان الشرقي قد صنعه الإسلام ولا يزال وسيظل الإسلام هو المحرك والمؤثر الأول في إنسان تلك البقعة من العالم.

أما في الغرب فإن الإنسان الغربي هو الذي صنع المسيحية حيث لا يخفى على الباحث في تاريخ الأديان مدى التحريف الذي أصاب النصرانية من الإنسان الغربي . الذي استغل الدين ولبس رداءه في كثير من الأحيان كالحروب الصليبية وغيرها .

ومن هنا كان اللقاء سوءا كان صراعاً أم حواراً إنما كان بين الإسلام الـ صنع الإنسان والغرب الذي صنع النصرانية وإلا فإن الأديان السماوية لا صـــراع بينها.

والإسلام ليست من أبجدياته فكرة الصراع بين الحضارات هذه أمـــا علـــى المستوى الفردي أو الجماعي فإن مصطلح الحوار الجدال بجميع الإشتقاقات تكـثر في آي القرآن وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وهذه الكثرة في الاستعمال لهذه الألفاظ تنبع أساساً من كونه ديناً يدعـوا إلى أعمال الفكر والعقل والحوار في كل قضاياه.

وهذه الأمور لا تتأتى إلا من الثقة بأحقيته في كونه الديـــن الخليـــق بإنقـــاذ البشرية من وهدتها وإسعافها من كبوتها .

ونحن في هذا البحث المتواضع سوف نحاول إلقاء الضوء على مفهوم التدافـــع ومفهوم الحضارة ، ثم نوضح بعد ذلك مفهوم الغرب للحـــوار بـــين الحضـــارات ، والرؤية الإسلامية لهذه الفكرة . وكيف كانت العلاقة بـــين الحضـــارات في مســـار التاريخ وكيف أنها قامت على التأثير وأن الإسهام الحضاري للإسلام على الحضـــارة الغربية أكبر من أن ينكر أو يستهان به وقد شهد بذلك المنصفون من أهل الغـــرب. مع ملاحظة أن الحضارة الإسلامية في أصلها ومنبعها تعتمد على المصدر السماوي من كتاب وسنة ثم على إسهامات العقلية الجبارة. بخلاف الحضـــارات الأخـــرى الـــتي توصف بالوضعية إبتداءاً وانتهاء.

تمهيـــد

تعريف الحوار :

الحوار من المحاورة وهي تعني المراجعة في الكلام ومنه قوله تعالى (إنه ظـن أن لن يحور) أي يرجع إلى ربه. وهي أيضاً بمعنى المجادلة، وقد أجتمع الحوار والجدال في آية واحدة كما قال ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّـهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [سورة المجادلة:١].

ويراد بالحوار والجدال: مناقشة بين طرفين يقصد بها تصحيح كلام وإظـهار حجة ، وإثبات حق ودفع شبهة، ورد الفاسد من القول والرأي.

وقد يكون من وسائل الحوار الطرق المنطقية والقياسات الجدلية من المقدمات والمسلمات مما هو مبسوط في كتب المنطق وعلم الكلام وآداب البحث والمناظرة وأصول الفقه[1].

والحوار قد يكون هادئاً يعتمد على الإقناع ويراد منه الوصول إلى الحقيقة أياً كان مصدرها وبعيداً عن اللدد والخصومة . وارتفاع النبرة الحوارية .

وقد يكون الحوار عنيفاً يحاول من خلاله كل طرف إجبار الطرف الآخر على التسليم بالقضية مهما كانت تفاهة الأدلة التي يقدمها .

والنوع الأول هو المأمورية إذ المسلم عليه أن يحاور الآخر ويجادله بالتي هـي أحسن قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [سورة النحـل:١٢٥] وقـال: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت:٤٦].

---

(١) أنظر في ذلك التعريفات للجرجاني مادة جدل. ولسان العرب ج٤ ص ٢١٧ وما بعدها، والصحاح ج ٢ ص ٦٣٨.

وأما النوع الثاني فقد حذّر الرسول صلى الله عليه وسلم منه مبيناً أنه ما كـان في مجتمع إلا وأدى إلى هلاكه وفساده وكلا النوعين يجمعهما التدافع الذي قد يكـون بالحسنى وقد يكون عن طريق القوة.

واختلاف الناس وتباين أهوائهم ومشاربهم أمر طبيعي فكما إنهم مختلفـون في الجنس واللون واللغة . كذلك مختلفون في الأهواء والمشارب . وهذا مقرر في القرآن الكريم . كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾ [سورة هود: ١١٨ - ١١٩]، ومن هذا الاختلاف ينشأ إما الصراع فتكون الحروب، وإما الحوار فيكون التعايش والتواد حتى ولـو اختلفـت مصائرهم في الآخرة فريق في الجنة وفريق في السعير.

ومن هنا فإن الإسلام يبقى دائماً على الحوار بين المجتمع الإسلامي بعضه مـع بعض أفراداً وجماعات . وأيضا بين المسلمين من جهة وبين غيرهم من جهة أخرى.

تعريف الحضارة:

تعرَّض لتعريف الحضارة الكثير من الباحثين ولا سيما في العصـر الحديـث، معظمهم من المستشرقين وعلماء الغرب، وكان لكل منهم وجهة نظر تختلـف عـن الآخر.

ولقد كان العلامة ابن خلدون أبرز من تصدى من علماء الإسـلام لدراسـة الحضارة والاجتماع البشرى ، معبراً عنه بعلم " العمـران البشـرى والاجتمـاع الإنساني "[١].

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٥ .

وجدير بنا أن نعرف الحضارة أولاً من الوجهة اللغوية ، وقد جاءت تعريفاتهم متطابقة إلى حد ما .

فعرفها الفيروزابادي بأنها " الإقامة في الحضر "(١).

أما ابن منظور فقال : " الحضر خلاف البدو والحاضر خلاف البادي، والحضارة الإقامة في الحضر "(٢).

ولقد تناول ابن خلدون معنى الحضارة في أماكن عدة من كتابة ، ويرى بأن الحضارة ضد البداوة ، وهي طور طبيعي من أطوار حياة البشر، والبداوة أقدم من الحضارة ، والحضارة غاية للبداوة ، لأن البدو في معاشهم إنما يقتصرون على الضروري منه بخلاف الحضر(٣) ثم نجد ابن خلدون يعرف الحضارة في موطن آخر من مقدمته ، فيقول : " والحضارة إنما هي تفنن في الترف وأحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه ... (٤).

وديورانت يعد من أشهر المختصين في العصر الحديث بالدراسات الحضارية ، فقد عرف الحضارة بأنها " نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي "(٥)

ويعرفها آخر بقوله : الحضارة بكل بساطة معناها بذل المجهود بوصفنا كائنات إنسانية من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم من أي نوع كان في أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعي(٦).

---

(١) الفيروزاباوي : القاموس المحيط ج ٣ ص ١٠

(٢) ابن منظور : لسان العرب ج ٥ ص ٢٧٢ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ١٢٠ - ١٢١

(٤) ابن خلدون: ص ١٧٢ .

(٥) ديورانت : قصة الحضارة ج ١ ص ٣

(٦) فلسفة الحضارة . أسيفيتشر ترجمة عبد الرحمن بدوي ص ٣

معنى ذلك أن الحضارة تراث مشترك بين الشعوب مثلها مثل بحر كثير الميـــاه والأمواج وله روافد عديدة تصب فيه على الدوام تلك الروافـــد هـــي الثقافـــات القومية.

- ولا يعنى أنها كالبحر بأمواجه أن الحضارة الإنسانية متشابهة في كل الأحقـــاب والأزمنة بل إن كل أمة لها رصيدها الحضاري وتميزها التي تتميز به حضارتها .

ولا مانع مع وجود هذا التميز أن تنتقل بعض المؤشرات الحضارية من حضارة إلى حضارة لكن بشرط أن لا تذوب مع هذا الانتقال شخصية الأمة وهويتها .

فالأمة الإسلامية – مثلاً – لم تتقوقع داخل ذاتها مع ما لديـــها مـــن رصيـــد حضاري هائل . بل إنها أخذت النافع من كل حضارة وجدت علـــى الســـاحة . إذ (الحكمة ضالة المسلم أني وجدها فهو أحق الناس بها) كما قال المصطفى ﷺ.

ومعظم هذه التعريفات للحضارة تهمل الجانب الإلهي في الحضارة . لأن هـــذه التعريفات غربية تصدر من عقلية أبعد ما تكون عن الوحي وهدى السماء . وإلا فإن الحضارة الإسلامية لا يمكن إغفال الجانب الإلهي في تكوينها. وأصل نشأتها إذا الوحي فيها هو المحرك الأول لها مضافاً إليه ابتكار العقلية المسلمة من خلال فهمها لنصـــوص الوحي وما جلبته من حضارات أخرى وصاغته في قالب إسلامي.

الفصل الأول
الغرب والصراع الحضاري

صراع الحضارات في المفهوم الغربي

لا شك أن من إفرازات العولمة أو النظام العالمي الجديد أن ظهر على السطح نظرية ما يسمى بالصراع الحضاري . وهي نظرية وإن أعلنها هنتجنتون السياسي والأكاديمي الأمريكي . غير أنها تعبير عن مكونات النفسية الغربية تجاه الشرق الإسلامي بخاصة كما سبق بيانه .

فهو لم يفعل إلا إظهار الخريطة الفكرية الإستراتيجية الموسومة في عقل ونفس القادة الغربيين.

وهنتجنتون وإن ركز على أن الصراع سيكون بين الحضارة الغربية من جهة والحضارتين الإسلامية والكنفوشوسية من جهة أخرى . غير أن الحضارة الإسلامية هي الخليق بالمواجهة بعد ما أستأنس الغرب أغلب المنظومات الكنفوشيوسية كاليابان التي تسير نحو الليبرالية الغربية . ومن بعدها الصين . وذلك لأن هذه الحضارات مادية صرفة لا مجال للروح فيها بحال من الأحوال بل أن شئنا قلنا إن هذه الحضارة تحمل بذور هدمها في باطنها . لما تحمله من طابع مادي يرمز إليه بالحياة الحيوانية.

إذا فالباقي في حلقة الصراع هو الحضارة الإسلامية في مواجهة الحضارة الغربية . والغرب لم يتخلص إلى الآن من كراهية المسلمين بالرغم من ادعائه الانفتاح على الآخرين .

إن أكثر الشعارات التي يرفعونها في الغرب (مثل حقوق الإنسان والديمقراطية ومحاربة الإرهاب) هي ذرائع تخفي الوجه الحقيقي للمعركة.

صحيح أن الخلفية البراجماتية للسياسة الغربية حاضرة على الدوام إلا أن العامل الحضاري غير غائب إن لم يكن هو الغالب في أكثر المناوشات بين أمم الغرب والأمة الإسلامية .

إن قارئ التاريخ يلحظ أن الغرب ومنذ الحروب الصليبية كان يدعي وحشية الشعوب المسلمة وأنهم يأتون إليهم بالمدنية يبغون إخراج أهلها من حياة الوحوش مع أن المنصِّرين كانوا دائماً في مقدمة الجيش ، ولهذا ما إن تثبت أقدام المحتل حتى يبدأ في تنشيط الذاكرة بتنحيه الإسلام وشريعته وإحلال محلها القوانين الوضعية .

إذاً ما أتى به هنتجتون إنما كان ملخصاً لتاريخ الغرب وكراهيتهم للإسلام والمسلمين.

وأكده أيضاً الرئيس الأمريكي (جورج بوش الابن) بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر حين أعلن أن ما حدث لأمريكا إنما هو حرب على الحضارة والمدنية ، وقال في مناسبة أخرى إنما ما تفعله أمريكا هي حرب صليبية . وحتى بعد اعتذاره لم يجد شعاراً لحملته على الإرهاب سوى النسر النبيل وهو نفس شعار الحروب الصليبية والكاتب الأمريكي (توماس فريدمان) كان أكثر وضوحاً حين أشار إلى أن اليد الأمريكية لابد أن تطال حتى المساجد.

يقول في مقالة المنشور في نيويورك تايمز بتاريخ ٢٠٠١/١١/٢٧م (إذا كان تاريخ ٩/١١ / في الحقيقة بداية الحرب العالمية الثالثة. فعلينا أن نفهم أن ما تقصده هذه الحرب هو : أن علينا إلا نكافح لاستئصال الإرهاب. الإرهاب أداة فقط .. نحن نحارب لهزيمة الأيدلوجيا . فحكم الحزب الديني لا يمكن أن يقاتل بالجيوش وحدها بل يجب أن يقاتل في المدارس والمساجد والكنائس ولا يمكن أن يهزم بدون مساعدة الأئمة والأحبار[١] . وتصديقاً لهذا فإن قانون الإرهاب الذي وافق عليه مجلس الشيوخ الأمريكي يمنح السلطات الفيدرالية سلطات تمكنها من مراقبة الأشخاص في المساجد الذين يجتمعون من غير سبب.

---

(١) نقلاً من مجلة المجتمع عدد ١٤٨٦ . بتاريخ ٢٠٠٢/١/٢٦م .

وهنتجنتون أنطلق من رؤية دفاعية إذ لاحظ أن الإسلام ينتشر بصورة تدعوه للقلق في مقابل حضارة مادية إلحادية أفرزت ظواهر خطيرة اجتماعية وجنسية ومرضية وقلق واضطراب من هنا جاءت فكرة صدام الحضارات حتى يصحو الغرب ويكونّوا حائط صد أمام هذا التيار الجارف الذي هو الإسلام.

ونظرة الاستعلاء هذه قد تزايدت عقب خروج العالم من الحرب الكونية الثانية، وبدء التفرغ لجنى ثمارها ، بما فرضه ذلك من الدخول في صراع آخر، لا يكاد لا يقل ضراوة عن صراع المتحاربين منذ ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٤٥، بيد أن هذا الصراع الأخير أطلق عليه (الحرب الباردة)، وهي حرب - وإن لم تخلف هذه الآلاف من القتلى ، والعديد من المدن المهدمة ، والمزارع المبادة - خلفت تشويها في الفكر، وزيفا في المعتقدات ، وخداعاً في الآراء وتحولاً حاداً في القيم والأخلاق.

وكان أبرز ثمار هذه الحرب توسيع الهوة الفاصلة ، بين الدول والشعوب، تلك الهوة التي قسمت العالم – على وجه الإجمال – قسمين ، عالم سيد وعالم مسود، أو عالم مستعمر، وعالم مستعمر ، أو عالم مالك وعالم مملوك، أو عالم غنى وعالم نام.

وفي ظل هذا الشعور بالعلو والسيادة ، وما يقابله من الشعور بالدونية والعوز.. سادت أفكار تولدت في رأس الأقوى ، وهيمنت على مشاعره ، وتحكمت في عواطفه ، تفرض أن كل ما يصدر عنه هو الأفضل ،وهو الأصح ، وهو الدواء الناجع لإصلاح كل فاسد، وعلاج كل عليل، أياً كان موقعه، وأياً كانت ظروفه.

ومن هنا .. قر في معتقد الغربيين أنهم محور الكون جميعه، وأن على الآخرين أن يدوروا في هذا المحور، وإلا أصيب الكون بالبوار، ولذلك فإن عقاب بمن تسول له نفسه أن يخرج على هذا المعتقد الهلاك السريع ؛ لأنه - بخروجه – كأنه يدمر الكون، ويخل بنظام الحياة المستقرة الآمنة.

وسرعان ما سرى هذا المعتقد الغربي ، فانتشر بين كثير من أبناء العالم الثاني – العالم النامي – لا عن اقتناع منهم، ولكن عن توهم أن ما صدر عن السادة فهو الصدق الذي لا ينقض ، وهو الصحيح الذي لا يمارى فيه .. وبذلك تأكد لدى هؤلاء السادة الغربيين أن لهم قواعد تكمن بين العالم النامي من أبنائه ، تنوب عنهم في التبشير بمعتقدهم ، والدفاع عنه كلما دعت الحاجة ، وظهر من تسول له نفسه أن يشك في سيادقم ، أو أن يتجرأ على سلطاهم ؛ فكأن فرعون بعث وعاد إلى الظهور بزعمه أنه الرب الأعلى بحجة ما يحوزه من ثراء وسلطان ؛ فأخذ الإنسان الغربي الأبيض يردد في كل محفل ما قاله فرعونُ من قبل:

﴿يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]

وتطور بهذا الزعم ، فقال :

﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ [النازعات:٢٤] داعما زعمه الكاذب بسعة ما أوتيه من مال وملك، فقال:

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

مغمضاً عينيه وأعين الآخرين عما تستلزمه الألوهية من قدرة مطلقة، ليخدع نفسه ويخدع الآخرين بما أوتيه من ملك ومال ، يوشك في لحظة أن يكون وبالا عليه وعلى من معه.

ومع القرار على هذا المعتقد وإذاعته بكل الوسائل الخادعة. أملى على الجميع أن الغرب – أو الإنسان الأبيض – هو مصدر الخير للبشرية كلها، وهو صانع الحضارات، وأن على الآخرين أن ينعموا في ظل حضارة الأسياد، وأن لا يتطلعوا إلى غيرها، وإلا كانوا مصدر قلق، وموطن إزعاج يخشى منه على العالم، لأنه يصارع

الحضارة ، فيجب مقاومته، مادام قد تجرأ على الأسياد، ورفض حضارتهم ونعيمـــهم، كما صنع فرعون من قبل مع موسى ومن تابعه :

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾[الشعراء:٢٧]

وقال هو وأتباعه :

﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾[غافر:٢٥]

فما إن تحلل بناء الاتحاد السوفيتي الذي كان بقوته النووية يشـــغل البيـــض الغربيين، وما إن تأكد هؤلاء الغربيون أنهم أمنوا جانبه، ولم يعد مصدر قلق لسيادتهم، حتى تلفتوا باحثين عما يتوقع منه الخروج عن سلطانهم الممتد ، فرأوا في الإسلام تلك القوة الذاتية والقوة المادية التي يخشى جانبها، بما لديها من تراث حضـــاري فعـــال، يمكن أن يكشف عوار حضارتهم وزيفها، إذا ما هيأ للإنسان العصري أن يوازن بـــين الحضارتين.

سوء فهم الإسلام في الغرب وأسبابه:

إن سوء فهم الإسلام في الغرب بصفة عامة يرجع أساساً إلى تشويه متعمـــد للإسلام منذ قرون طويلة . فالحملات الضارية ضد الإسلام اليوم ليســـت وليـــدة ظروف جديدة طارئة ، وإنما هي نتيجة ترسبات قديمة ترسخت في العقلية الغربية منذ الحروب الصليبية ، بل حتى قبل الحروب الصليبية حينما فتح المسلمون الأندلـــس، وحينما فتح العثمانيون فيما بعد القسطنطينية وحاصروا العاصمة النمساوية فيينا.

وقد شهدت العصور الوسطى في أوربا الكثير من الافتراءات ضد الإســـلام والمسلمين، وراح اللاهوتيون النصاري في ذلك الوقت المبكر ينشرون الافـــتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم.

وهناك في هذا الصدد الكثير من الأساطير في وصف الإسلام وهي أساطير مغرقة في الخيال وفي الضلال اخترعها الكتاب في ذلك العصر مثل أنشودة رولاند الشهيرة وغيرها من آثار أدبية تصف المسلمين بأنهم عبّاد أصنام(١) وتدمغهم بأحط الأوصاف . ولم ينج من نشر مثل هذا الضلال أعلام الأدباء في الغرب مثل دانتي وفولتير وغيرهما . وقد ترسخ في العقلية الغربية أن الإسلام دين عدواني متعصب شهواني تواكلي .. الخ.. ولا تزال حتى يومنا هذا تدرس للأطفال في المدارس الغربية معلومات خاطئة عن الإسلام والمسلمين. (٢)

ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا الحملات الإعلامية ضد الإسلام والمسلمين في الغرب تنشط بين الحين والحين . فهي حملات تعبر عن مدى سوء فهم الغربيين للإسلام ، ومدى تأصل ما ورثوه في هذا الصدد من أوهام ترسخت في أذهانهم. ويعجب المرء عندما يجد أن الأديان الأخرى وبخاصة الأديان البشرية تعامل من جانب الغرب معاملة منصفة .. والإسلام وحده من بين كل الديانات في العالم هو الذي يهاجم ويساء إليه، وهو وحده الذي يرمى بكل النقائص.

وترتعد فرائص الغربيين حينما يسمعون عما يسمى بالصحوة الإسلامية في بعض البلاد الإسلامية ، وينظر الغرب اليوم إلى الإسلام على انه هو العدو البديل بعد انهيار العدو التقليدي المتمثل في الشيوعية .. ولم يخف المسئولون في الغرب ذلك، بل أعلنه العديد منهم في صراحة ووضوح .. ويتضح موقف الغرب من المسلمين في وقوفه المتفرج لأكثر من ثلاثة أعوام من مأساة البوسنة والهرسك . فقد

---

(١) انظر : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري للدكتور محمود زقزوق ص ٢٩ وما بعدها – دار المنار بالقاهرة ١٩٨٩. وكذلك: نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى ، لساذرن – ترجمة على فهمي خثيم – دار الفكر بطرابلس – ليبيا ١٩٧٥ .

(٢) ص ١٠٠ من كتاب الإسلام والغرب للدكتور محمود زقزوق.

أعلن الصرب في وضوح أنهم يقوموا بمهمة تاريخية وهي حماية أوربا من الإسلام ، وأن أوربا إذا قالت شيئا غير ذلك فهذا من قبيل النفاق . وقد ظلت أوربا بالفعل تنافق طوال هذه المدة وتكتفي بإصدار بيانات الشجب والاستنكار إلى أن يحقق الصرب أهدافهم. ويريد الصرب أن يكرروا في البوسنة والهرسك ما فعله الأسبان قبل خمسمائة عام من طرد المسلمين من الأندلس والفتك بهم. وموقفهم أيضا من كشمير والشيشان وفلسطين وغير ذلك كثير.

ولكن الإسلام لم يقف من المسيحية إلا موقف السماحة والكرامة كما وقف من عيسى عليه السلام وأمه الصديقة ولا أدل على ذلك من العهود التي كتبها الرسول لأهل نجران والتي كتبها عمر لأهل أيلياء (بيت المقدس) وسماح المسلمين لأهل الكتاب (يهودا ومسيحيين) بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي في الوقت الذي قامت في المسيحية الغربية بقتل ٧٠ ألف مسلم في بيت المقدس ومئات الألوف في الأندلس . كما أحل الإسلام للمسلمين طعام أهل الكتاب.

كذلك فقد حرصت كتابات معظم الغربيين على أن تحمل لواء التعصب والكراهية والحقد للإسلام فهي لم تعترف بدور المسلمين في تحضير أوربا وإنكار دور المنهج العلمي التجريبي الذي أنشأه المسلمون . كذلك فقد حاولت أن تصور تأخر المسلمين في هذه المرحلة بأن مرجعه إلى الإسلام.

يقول الكونت كاتباني: "من المؤسف أن تذهب الكنيسة إلى أن ظهور الإسلام كان ضربة قاضية على المسيحية بسبب اعتناق كثير من أتباعها هذه الديانة الجديدة على حين أن الأمر يعكس ذلك فقد أدت الديانة الإسلامية عن طريق غير مباشر خدمات جليلة إلى المسيحية ، إذ لو لم تظهر الديانة الإسلامية وقدر للمسيحية

الأرثوذكسية الجامعة التي يعتنقها الأروام والروس والتي لم يقم أي دليل على نهضتها أن تبقى مهيمنة من ذلك التاريخ إلى اليوم وحالت دون سطوع مدينة العرب والعجم فماذا يكون مصير غربي آسيا وأوربا في القرون الوسطى المظلمة . أو لم تحل النهضة البروتستانية التي ظهرت على الأثر دون تدابير الأرثوذكسية في هوة الانحطاط . بيد أن هذه الخدمات التي قام بها الإسلام نحو المسيحية قد كادت أن تطمس معالمها من جراء النضال المستمر بين هاتين الديانتين فحجب وجه الحقيقية.

ولا ريب أنه كان من عوامل الخلاف بين الفكر الغربي وبين الإسلام تلك الحواجز التي حالت دون النظر الصحيح.

أولاً : عقيدة المسيحية في الألوهية والنبوة .

ثانياً : خصومة الكنيسة للإسلام وتحريضها على الحروب الصليبية .

ثالثاً : الصلة التي قامت بين الغرب والدولة العثمانية خلال الخمسمائة سنة الأخيرة.

يقول م . ر ح . كونت : أن الكثير من الغربيين شبوا على كراهية الدين الإسلامي وار تضعوا ذلك في لبان أمهاتهم ، ويقول : بينما شب المسلمون جيلاً بعد جيل على الإيمان بموسى وعيسى وعلى حب المسيح ومريم والأديان والكتب السابقة جميعاً.

ولا ريب أن الخلاف الأساسي بين الإسلام والمسيحية ناشئ من اختلاف مفهومهما لله فإن التوحيد الخالص هو أساس الإسلام والتثليث هو أساس المسيحية . وعن ذلك جري الاختلاف في تفسير الحياة والعقيدة والمجتمع ، كذلك فقد رفض الإسلام فكرة الأبوة والرهبانية وفكرة عالمية المسيحية .

ويقرر الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي إن المسيحية الغربية هي التي أفسحت للتفسيرات على النحو الذي خرج بها عن الأصل المنزل . ولا ريب أن النصرانية استطاعت أن تدمر الوثنية وأن تمهد للإسلام وأن تعد البشرية لدين الإنسانية حين دعت إلى كسر عنصرية اليهودية ومادها وإعلاء مبدأ الرحمة والأخوة البشرية والأخلاق غير أنها حين قضت على المادية لم تستطع أن تتوسط ومالت إلى الرهبانية وجاء الإسلام كما يقول الدكتور الفار وقي ليرد الأمور إلى طريقها الصحيح: إلى الحنفية الإبراهيمية القائمة على التوحيد والرحمة والإخاء البشري، ومن هنا ولأصالته ولفطرته انتشر بنفس السرعة الخاطفة في مختلف المواقع العربية التي كانت المسيحية مسيطرة عليها وفي الأندلس استقر سبعمائة عام.

وجاء الإسلام مذكراً ومؤكداً لرسالة الله الحق : " يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب" .

فإذا كانت الحضارة الغربية قد تبنت واعتمدت فلسفة " الصراع " فرأته قانون العلاقة في الأحياء – صراع البقاء في الدارونية – وفي الاجتماع – الصراع الطبقي في الماركسية .. وفي العلاقات مع الحضارات الأخرى – المسخ والنسخ والتشويه لمواريث الأمم التي أصابها الاستعمار والهيمنة الغربية . . إذا كان هذا هو طابع العلاقة ، كما فرضتها الحضارة الغربية علينا .. فهو كالقتال الذي فُرض علينا.. وهو كره لنا ! – وعسى أن تكون الثمرة، ثمرة هذا الصراع الذي فرض علينا، شحذ الهمة في معركة التجديد للفكر الإسلامي ، إخراجاً له من أزمته المعاصرة، وتجديداً لواقع الأمة به ، لا لننفى " الآخر الحضاري " وإنما لنقسره غداً ، كما قسره أسلافنا بالأمس ، على التخلي عن طموح الهيمنة الحضارية ، وعلى القبول بالتعددية، ليصبح الكوكب الذي نعيش عليه " منتدى حضارات " تتفاعل وتتبادل العلم النافع،

وتحتفظ كل منها بما لها من خصوصيات .. مثلها كمثل الإنسان الراشد المستقل، يصافح الجميع ، دون أن يفقد يده.

إن المستعمرين الفرنسيين والإيطاليين والإنجليز، والأسبان عملوا على تشويه ما قدمه العرب المسلمون من إسهامات حضارية ، فوصفوا ما قدموه للأسبان من شتى ألوان الحضارة بأنه غزو عسكرى، مغفلين ما قدموه للأسبان من تحرير، حيث أنقذوا الأفنان من وصاية ملوك "الفيريغوط " ، وما أقاموه في إسبانيا من أجل منشآت الري التي عرفها العصر ، وما نهله الأسبان والأوربيون جميعاً على أيدي العرب المسلمين من علوم الطب، والصيدلة ، والكيمياء ، والجبر ، والرياضة ،والجغرافيا، والفلك ، والنظم الاجتماعية والاقتصادية.

فالعرب ما دخلوا أوربا غزاة، ولكنهم دخلوها معلمين، ناشرين تلك الحضارة الإنسانية الشاملة ، التي حظيت بقبول الجماهير التي كانت ترزح تحت وطأة نظام الرق. ومع ذلك شوهت صورهم حتى عد المستعمرون معركة " بواتيه " التي انتصر فيها(شارل مارتال) على العرب .. كسباً أوربياً ، مغفلين أن ما نشأ عنها من تراجع العلم العربي ، والفن العربي ، والحضارة العربية جعل هذا اليوم أشأم يوم في تاريخ فرنسا على ما صرح به العقلاء.

إن عصر النهضة في الغرب ما وقف على الثقافات القديمة بدءاً من الثقافة الهللينية إلا عن طريق العرب الذين ترجموا " أرسطو" و "جالينوس"، و" أفلاطون " و "بطليموس" و"إقليدس" و"أرشميدس" وقدموه للغرب من جديد مع ما أضافوه إليهي .

ولو أن الغرب استقبل هذه الحضارة العربية الإسلامية بالتحاور البناء لأفاد الإنسانية كثيراً ولكنه شوهها، وقلب حقيقتها ن فأضاع الفرصة الثانية .

هذا هو الشأن في الغرب وفي العقل الغربي تجاه الإسلام الذي لابد من إزاحته من الوجود لتمكين الحضارة الغربية من السيطرة على العالم.

فالغرب إلا قليلاً منهم . يؤمن بنظرية الصراع ويحاول إفناء الأخر من الوجود والواقع المعاش خير دليل على ذلك في حين حفل الإسلام بالدعوة إلى التسامح منذ بزغ فجره ، لكن الدعوات ليست كل شئ ، فكثيراً ما سمعنا دعوات لم تتحقق ، لأن التطبيق العملي شئ والبيان النظري شئ آخر ، أو لأن الدعاة مخادعون يبتغون التمويه والتضليل لأغراض يخفونها .

ولا يزال العالم يذكر مبادئ ولسون الأربعة عشر بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ذ١٩١٨، ويعلم أنه لم يتحقق منها شئ. وما يزال العالم يسخر من وعود إنجلترا وأمريكا في الحرب العالمية الثانية، لأنها وعود كاذبة ذهبت مع الريح.

أما الإسلام فقد قام على التسامح قولاً وعملاً .

ويمكن لنا إيجاز عوامل أسباب كراهية الغرب للإسلام والمسلمين .

١- أسباب دينية متمثلة في قضية الألوهية . حيث المسيح عيسى ابن مريم عند المسلمين عبد الله ورسوله وكلمته وعند الغرب إله وجزء من إله واحد .

٢- أسباب تاريخية ذلك أنه منذ قيام الإسلام الظافر الامبراطورية الرومانية في عهد الخلافة الراشدة بداية باجتياح دين وحضارة والعالم الغربي لم يمح من ذاكرته هذه الأمور

٣- التشويه المتعمد من قبل بعض رجال الدين المتعصبين ضد الإسلام ونبي الإسلام

٤- نظرة الاستعلاء من قبل الغرب والتي تقابل الإسلام بكل إباد

خصائص الحضارة الغربية

للحضارة الغربية سمات خاصة تنفرد بها عما عداها من الحضارات الأخـرى . هذه السمات مجتمعة تمثل خصائص وأسس لازمت هذه الحضارة منذ نشأتها في بـلاد الإغريق ثم في بلاد الرومان حتى انتقلت إلى أوربـا المعـاصرة وأمريكـا . وهـذه الخصائص هي :

١ - الاضطراب في فكرة الألوهية :

فأول سمات الحضارة الغربية – كما يقول الدكتور القرضاوي – هو الغبـش في معرفة الألوهية . إذ ليست رؤية صافية تقدر الله حق قدره وإنما هي رؤية غائمـة مضطربة تحيط بها الأوهام والجهالات ، بل الحق أن الغرب – كما يظهر من تاريخـه لم يعرف الله جل شأنه معرفة صحيحة ولما يهتد إلى الإيمان الصحيـح بخـالق الكـون ومدبره [١].

ولا يقتصر هذا الغبش على الحقل الفلسفي في العهد اليوناني . حيث العلـة الأولى للعالم لا تعرف عن العالم شيئاً . بل أمتد هذا الاضطراب إلى الحقل اللاهوتي في عهدية الوسيط والحديث.

ويرجع ذلك كله – فيما أرى – إلى اعتماد العقل – وحده – مرجعية لمعرفـة الكون وخالق الكون . واستبعاد هداية الوحي في هذا الشأن الذي يعد في الحقيقة هو الأساس في معرفة الخالق سبحانه وتعالى إذ لا يعلم الله وصفاته وجلالة إلا الله.

وشهم حيث ربى أصحابه على العزة وعدم قبول الضيم

٥ - عدم الارتضاء أن تكون [illegible] العصر مساوئ وسلبيات حدثت من جانب الإمبراطورية العثمانية تجاه بعض الغربيين مما عمق نظرة الكراهية والعداء.

(١) الإسلام حضارة الغد للدكتور يوسف القرضاوي ص ١٢

٦ - عدم فهم الإسلام فهماً صحيحاً ومحاولة الربط بينه وبين الممارسات الخاطئة لبعض المسلمين.

٣ - النزعة المادية :

من خصائص الحضارة الغربية النزعة المادية ونعني بها النزعة التي تؤمن بالمادة وحدها وتفسر بها الكون والمعرفة والسلوك ، وتنكر الغيبيات وكل ما وراء الحس وتختصر الروحانيات ، ولا تحفل بالمعنويات ولا تؤمن بالمثاليات .

والحقيقة أن الحضارة الغربية حضارة الأشياء التي يموت فيها الإنسان وتحيا فيها المادة .

والمسيحية فيها ليست سوى شعار يرتبطون به وصليب يتجمعون حوله ونزهة إلى كنيسة يذهبون إليها في أيام الإجازات ليست المسيحية قيماً يؤمنون بها وعقائد يخضعون لها .

يقول صاحب كتاب الإسلام على مفترق الطرق :

إن الأوربي الحديث سواء كان ديمقراطياً أم فاشياً ، رأسمالياً أم بلشفياً ، صانعاً أم مفكراً يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو : التعبد للترقي المادي أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر .. إن هيا كل هذه الديانة – أي معابدها وكنائسها – إنما هي المصانع العظيمة ، ودور السينما ، والمختبرات الكيماوية ، وباحات الرقص وأماكن توليد الكهرباء ، وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما ، وقادة الصناعات وأبطال الطيران ، وأن النتيجة التي لا مفر منها في هذه الحال هي الكدح لبلوغ القوة واللذة، وذلك يخلق جماعات متخاصمة حيت تتصادم مصالحها .

٧ - الصهيونية العالمية التي قامت منذ عقود على محاولة تأليب العالم على الإسلام وأهله خاصة وأن الإسلام هو العدو اللدود للصهيونية

٨ - الإعلام العالمي الذي يقوم على تزييف الحقائق ونشر الأكاذيب عن الإسلام والمسلمين

وأما على الجانب الثقافي فنتيجة ذلك خلق نوع بشـــري تنحصـــر فلســـفته الأخلاقية في الفائدة العملية ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر هو التقدم المادي لا غير)[1].

هذا هو حال أغلب الغرب الذين يعبدون المادة وليس الألـــه . وحـــتى وإن عبدوا إلهاً فمن أجل المادة . فقد قال أحد فلاسفة فرنسا وهو جان بول ســـارتر. إذا كانت فكرة الأله تشبع بطني وتملأ معدتي فهي فكرة صحيحة .

٣ - النزعة العلمانية :

وهي ثمار السمتين السابقتين وهي تلك النزعة التي تفصل بين الدين والدولـــة أو بين الدين والحياة [2]

فالدين عند الغربي علاقة بين العبد وربه لا يجب أن يخرج عن نطاق قلبه وإن خرج فليكن بين جدران الكنيسة فقط. وليس من شأن الذين أن يسيِّر حياة المجتمـــع ولا أن يتدخل في السياسة والاجتماع ولا الإدارة ولا الاقتصاد .

والعلمانية نشأت في الغرب كرد فعل للصراع المرير الذي كان دائـــراً بـــين المؤسسات الدينية وبين المجتمع الغربي ثم الصراع بين الكنيسة والعلم . فأدى ذلك إلى رفض هذا الدين الذي كان حجر عثرة أمام التقـــدم العلمي ومن هنا فـــإن جنايـــة رجال الدين أنكى واشد من جناية العلمانيين عليه .

وقد أيد هذه النظرة في الفصل بين الدين والحياة ما ورد في الإنجيل من قـــول يسوع اعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

---

(١) ص ٤١ من كتاب الإسلام على مفترق الطرق

(٢) الإسلام حضارة الغد ص ١٥

وهذا بخلاف الحضارة الإسلامية التي من سماتها أن قيصر وما ملك لله سبحانه. إذ الأمر كله لله .

٤ - فكرة الصراع :

- من خصائص الحضارة الغربية أنها حضارة تقوم على الصراع ، لحمتها وسداها الصراع . لا تعرف السلام ولا الطمأنينة ولا الحب . وهو صراع متغلغل في كل النواحي ، متنوع الأشكال ، متعدد المجالات متباين الأسلحة والأساليب . [١]

فالإنسان الغربي يعيش صراعاً مع نفسه حيث يصارع فطرته التي فطره الله عليها حيث الإلحاد الذي يناقض الفطرة .

ويعيش صراعاً مع الطبيعة التي اعتبرها عدوه التي يجب السيطرة عليه والإنسان الغربي يعيش في صراع مع أخيه الإنسان وهو صراع يأخذ صوراً شتى .

فهو صراع بين الأفراد ومن أجل المنفعة الفردية ولا سيما مع شيوع الفلسفة النفعية وشيوع مقولة هوبرز الإنسان ذئب للإنسان وهو صراع بين الطبقات والجماعات وخصوصاً مع استئثار كل جماعة بالمنافع لأنفسها .

وصراع بين المؤسسات كالصراع بين الكنيسة والدولة والذي انتهى إلى ما عرف بالعلمانية .

وصراع بين الأمم والأجناس خصوصاً مع حدة الشعور القومي وهو الذي أدى إلى حروب إقليمية وعالمية .

---

(١) المصدر نفسه .

بل وهو ما نشاهده الآن على الساحة الدولية خاصة مع النظام الدولي الجديد الذي ترأسه أمريكا الذي يقول الخبراء العسكريون عنها أنها في حاجة إلى حرب كل ١٠ سنوات .

بل إن البعض قد ذهب إلى أن أمريكا قد مضى منذ إنشائها وتوسعاتها ٢٢٣ سنة دخلت خلالها في ٢٣٢ معركة .

والغربي بالذات لا يحمل نفساً ذات سكينة أو روحاً هادئة ولذا تراه يترع إلى الصراع واحتلال أراضي الغير واستعباد الآخر وذلك أمر صار وكأنه مجبول عليه.

٥ - النظرة العنصرية :

فالاستعلاء على الآخرين من سمات الغربي الذي يعتقد أنه أفضل من غيره وأنه أنقى دماً وأنه خلق ليقود ويسود ويحكم[١].

ولهذا نراهم وقد قسموا الأجناس وقد وضعوا لكل جنس صفات خاصة به وأن الجنس الآري هو الأفضل والأذكى . بخلاف الجنس السامي الذي لا يستطيع الابتكار وأنه مجبول على التقليد .

وعلى الرغم من سقوط تلك النظرية خاصة وعلماء الحضارات يذهبون إلى أن الحضارة الغربية مسبوقة بحضارات أعظم منها إن لم تكن مثلها لكن العنصرية تعد أصلاً من أصول الحضارة الغربية.

ونظرة العنصرية هذه لدى الغرب تتوافق تماماً مع الفكرة الصهيونية الذي يزعم أصحابها بأنهم شعب الله المختار .

(١) المصدر نفسه .

وواقع الصليبية الغربية يتسق تماماً مع الصهيونية الإسرائيلية حيث تزعم أمريكا أنها حاملة لواء العدالة في العالم وأنها يجب أن تطهر العالم من الإرهاب .

وشارون أيضاً يقوم بحملة عنصرية وتصفية للفلسطينيين يزعم أنه يريد أن يخلص المنطقة من الإرهاب.

ولهذا فإن الناظر إلى الأحداث الأخيرة يرى هذا الموقف المتخاذل من جانب الغرب تجاه ما يحدث في أرض القدس. وذلك لأن النهج العنصري هو الذي يقود الطرفين الصليبي والصهيوني والطيور على أشكالها تقع .

الغـزو الفكــري

يرى العلاّمة ابن خلدون أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده "والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط من أن انقيادها ليس الغالب طبيعي إنما هو لكمال الغالب فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه والله أعلم من أن غلب الغلب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغالب وهذا راجع للأول، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله"[1].

ويزعم ابن خلدون أن الأمة إذا غُلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء:

والسبب في ذلك ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها غيرها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الأمل ويضعف التناسل والاعتماد إنما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم، بما خضد الغلب من شوكتهم فأصبحوا مغلبين لكل متغلب وطعمة لكل آكل، وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أم لم يحصلوا [2].

---

(١) المقدمة صـ ١٠١ ط بيروت ١٩٨٨.

(٢) نفس المصدر ، ص١٠٢.

ونترك للقارئ الكريم، الحرية في تحليل دلالات النص الخلدوني لنؤكـــد علـــى إمكانية قراءة المسألة التغريبية من خلال تراثنا الفكري في ميدان الفقه الحضاري.

ومن مصلحة الاستعمار الثقافي، أن يضفي على وسائله أكبر قدر من الغموض، الذي ينطلي على كثير من النخب التي تدعي الوعي، وذلك حتى يتمكن من فـــرض ثقافته وطموحاته بعد أن أحاط تنفيذها بالحيطة والكتمان حتى تؤتي ثمارها، وفي هـــذا الصدد يقول "مالك بن نبي": إن الغموض يكون العنصر الأساسي الذي يميز الصـراع الفكري في البلاد المستعمرة، وهذا المبدأ يفضي بأن لا يكشف الاستعمار النقاب عـن وجهه في المعركة إلا إذا لم تترك له الظروف حيلة، فهو دائماً أو غالباً يستخدم قنـــاع "القابلية للاستعمار" ويترتب على مبدأ الغموض – ضمن وسائل الاستعمار الثقـافي – المبدأ الثاني والناتج عن الأول، في حيز التطبيق، وهو مبدأ "الفعاليـــة" إذ أن هـــدف الاستعمار لا يتعلق في الأساس بذات شخص معين، ولكن بأفكار معينة، يريد تحطيمها أو كفها، حتى لا تؤدي مفعولها في توجيه الطاقات الاجتماعية في البلاد المســـتعمرة، ومهما يكن من أمر فإن مبدأ الفعالية يقتضي من الاستعمار وبوجه التفصيـــل عـــزل المكافح الذي يواجه المستعمر في حلبة الصراع الفكري عن جانبين: أولاً: أن ينفر من أفكاره الرأي العام في بلاده، بجميع الوسائل الصالحة لذلك ثانياً: أن ينفره هو نفســه من القضية التي يكافح من أجلها بأن يشعره بعبث كفاحه.

ويشير "مالك بن نبي" في هذا الصدد إلى أسلوب خطير من أساليب الاســتعمار الثقافي، هذا الأسلوب يتعلق بظاهرة "البعثات الطلابية" التي تقوم بالدراسة في العـــالم الغربي، وكلنا نعلم أن "جل" رموز الخطاب التغريبي العربي، قد درست في جامعـــات الغرب، أو عايشت الحياة الغربية – عبر العديد من المستويات – ثم حاولت أن تتبـــى فلسفات وثقافات الغرب، في مشروعاتها الفكرية وبرامجـــها الثقافيـــة، وقـــد فطـــن الاستعمار إلى هذا المنزلق منذ وقت مبكر استطاع من خلاله القيام بإعداد وتكويـــن

مثقف المستعمرات المتغرب، وبذلك يتم تكريس التوجه الغربي من خلال أبناء البلاد المستعمرة، وكان ذلك الأسلوب جزء من الاختراق الثقافي للعالم الإسلامي، لا نستطيع أن ننكر نجاح الغرب فيه إلى حد كبير، والأمثلة في هذا الميدان كثيرة.

يقول "بن نبي" أن البلاد المستعمرة لا تعرف على العموم ما هو الصراع الفكري، وإنما تسجل تلقائياً نتائجه السلبية في حياتها، فحينما ترسل إلى الخارج بعثه من الطلاب للدراسة العليا فقد قامت تلقائياً بعمل يتصل بالصراع الفكري، ولكنها لا تعلم بالضبط مقتضيات هذا الصراع وأسلوبه ووسائله وأهدافه، وهذا البعثة قد تقبلتها رعاية الاستعمار[1].

والإسلام وحده هو الكفيل بحماية الأمة من الذوبان وتقوية حصونها الثقافية أمام كل أشكال التغريب، حتى لا تتيه في زحمة البدائل الفكرية والأيديولوجية، ويتم ذلك من خلال منهج يقوم على صياغة العناصر الأساسية التي تسهم في خلق تركيب حضاري يستلهم الموقف الإسلامي من المسألة الحضارية.

والغرب بهذا الغزو الفكري يريدون بث روح التفرقة وإثارة الفتن الطائفية والاعتماد على التصوف والطرق الصوفية، وعلى أنها المجال الوحيد للتربية الروحية وكذا الحال فإنهم يرون أن لا سبيل لحياة الإنسان إلا باتباع الشيوعية، والرأسمالية، والماسونية، ونظم العلمانية، وهذا هو حاضر العالم الإسلامي وحاله اليوم، وهذا ما سعى إليه الصهاينة واليهود والنصارى، وجميع أعداء الإسلام للعمل على الحيلولة دون اجتماع المسلمين في وحدة واحدة بتفتيت الجهود وخلق وحدات زائفة بين شعوب الأمة الإسلامية وحدات مبنية على شفا جرف هار.

(١) أنظر كتاب إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث للعلاّمة: مالك بن نبي.

لذا نستطيع القول بأن الغزو الفكري لا يقل ضراوة عن الغزو العسكري وإن فاقه في أنه قد يستخدم لهذا الغزو بعض أبناء الأمة الذين لعقوا من معينه الآسن . ولهذا كان الغزو الفكري أحد أوجه التعامل الخشن من جانب للغرب تجاه الإسلام والمسلمين .

حركة الاستشراق

مما لا شك فيه أن الاستشراق كان أحد أوجه التعامل بين الغرب والإسلام، ومن الصعوبة بمكان التصديق بأن الاستشراق كان وسيلة شريفة للحوار الحضاري، بل كان – ولا زال – أحد أوجه الصراع، وحلقة من حلقات التدافع الحضاري بين الغرب والإسلام، ولنعلم أن مصدر ذلك هو الحرب الفكرية التي بدأها الكنيسة بدراسة أحوال الشرق الإسلامي وأحوال المسلمين للتمكن من القضاء عليهم والإجهاز على الدين الإسلامي، وتمثلت هذه الحرب الفكرية في الترجمة، والدس والتزوير والاتهامات الباطلة عن الإسلام والمسلمين، ثم امتدت بعد ذلك إلى حروب عسكرية تمثلت في حملات الانتداب، والحماية، والاستعمار بقصد صبغ الدول الإسلامية صبغة غربية خالصة واتباع قوانين وضعية من شأنها تمزيق الأمة الإسلامية وتشتيت شملها بما يوجد في البلد الواحد من أنظمة متعددة رأسمالية وشيوعية، واتجاهات مختلفة، كالعلمانية والماسونية والقومية.. الخ[1].

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ الروم:

تزوير الحقائق:

يذكر (فولتير)[2] في قاموسه الفلسفي وخاصة في المجلد السابع منه ما يؤكد أن رجال الدين في الغرب قاموا بحركة تزوير للحقائق ضد الإسلام والقرآن،حيث يقول:

---

(١) العلمانية. للدكتور سفر الحوالي، ص٥٤٩.

(٢) هو فرانسو ماري أرويه .المعروفة باسم فولتير.كاتب فرنسي شهير وقطب من أقطاب عصر التنوير ولد عام ١٦٩٤وتوفى عام ١٧٧٨م له مؤلفات عديدة ومقالات نقدية وموضوعات فلسفية وأعمال مسرحية ومن أهم مؤلفاته (القاموس الفلسفي) وقد تحدث في المجلد السابع منه عن القرآن الكريم، وعن الإسلام وكيف أنه انتشر بالقدوة الطيبة وليس بالسيف كما يزعم المستشرقون.انظر ص ٥٠ من كتاب الإسلام في الفكر الغربي .

(لا يزال القرآن في واقع الأمر يشتهر إلى اليوم بأنه الكتاب الأكثر تميزاً وسمواً، الذي كتب بهذه اللغة (العربية). لقد ألصقنا بالقرآن ما لا نهاية له من السفاهات التي لم تكن به على الإطلاق)[١].

ثم يذكر فولتير أن هذا التشويه يقصد به الأتراك بالدرجة الأولى. فيقول:

(لقد كان هذا موجهاً بالدرجة الأولى ضد الترك الذين أصبحوا من أتباع محمد، فكتب رهباننا الكثير من المطاعن هذه، إذ لم تكن هناك وسيلة تمكنهم من مواجهة الفاتحين غير ذلك)[٢].

ثم يذكر فولتير نماذج من هذا التزوير، مثل وضع المرأة في الشريعة وأن الإسلام قد انتقص من كرامتها في الدنيا والآخرة. ثم يقول: (ومن الواضح أن هذا كله كذب وبطلان)[٣].

وفي موضع آخر يخاطب فولتير مواطنيه خاصة رجال الدين الذين يتزعمون حملة التشهير بمحمد وأتباعه ودينه:

(أكرر لكم القول أيها الجهلة الأغبياء الذين خدعهم جهلة آخرون، إذ أقنعوكم بأن الديانة المحمدية ديانة شهوانية ولذات جسدية، بينما هي ليست كذلك، ولقد خدعتم في هذا الموضوع كما خدعتم في موضوعات أخرى كثيرة)[٤]

ويقول روجيه دي باسكييه مؤكداً هذه الحقيقة:

---

(١) نقلاً من كتاب الإسلام في الفكر الغربي (دين ودولة وحضارة) لواء أحمد عبد الوهاب.
(٢) المصدر نفسه، ص٥٠.
(٣) نفسه، ص٥١.
(٤) نفسه، ص٥٤.

(علاوة على أن الإسلام حقيقة إلهية تامة، ومثل أعلى روحي كامل، وأنه خلق كياناً سياسياً وتنظيماً اجتماعياً خاصين به، فهو - الإسلام - عالمية ترتكز على وعي عميق بالتوحيد، وإذا كان دين اليقين الذي يدفع طاقات مستوحاة أبداً من روح النزاهة العلمية الخالصة... ولا يمكن إنكار أن بعض المتخصصين في الدراسات الإسلامية والعربية قد قاموا بأبحاثهم بهدف واضح هو تحقير الإسلام والمسلمين)[1].

ومن هنا فإن الغرب قد كرس جهوداً وطاقات من أجل النيل من الإسلام تحت مسمى الاستشراق، كان الغالبية العظمى من هؤلاء تقوم بعمل تزويري لا يتفق ومنهج البحث العلمي.

أصناف المستشرقين:

الملاحظ أن كثيراً من الذين كتبوا عن موضوع الاستشراق يذهبون إلى تصنيف المستشرقين إلى نوعين رئيسيين تتخللهما بعض التقسيمات الجانبية:

النوع الأول: هم الفئة التي درست الإسلام دراسة لا شك هدفها النيل من المسلمين والحضارة الإسلامية، وتقدح فيها عياناً بياناً، وذلك ما نجده في كتابات جولد سيهر، ومرغليوت، وشاخت، وغيوم، ووات، وغيرهم كثير، وهذه الفئة عرفت بتحاملها على الإسلام المسلمين.

والنوع الثاني من المستشرقين: هم الفئة التي عادة ما توصف باعتدالها وإنصافها في اتجاهها نحو الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية، وسوف نعطي هنا مثالاً لطريقة تصنيف المستشرقين لدى معظم من كتبوا في هذا الشأن وذلك بقصد الموازنة بين ما يرونه هم وبين وجهة نظر الباحث في هذا المقام.

---

(١) الإسلام في الفكر الغربي، ص٥٧.

يقول أحد الكتاب[1]: إن المستشرقين ينقسمون إلى قسمين:

١) متعصبون، وهؤلاء ليست لدراساتهم قيمة علمية صحيحة.

٢) منصفون، وهم أيضا ينقسمون إلى قسمين:

أ- جماعة اشتهروا بالإنصاف في الأوساط العلمية وأظهروا أنهم أقبلوا على الاستشراق بدافع من حب الإطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها، وأنهم متحررون تماما في بحوثهم من أثر العواطف الدينية فكتبوا عن الإسلام وأظهروه في ثوب نظيف على جسد وسخ فهم من منافقي المستشرقين.

ب- جماعة لهم أهداف علمية خالصة لا يقصد منها إلا البحث والتمحيص ودراسة التراث العربي والإسلامي دراسة تجلو لهم بعض الحقائق الخافية عنهم، وهذا الصنف قليل عدده جدا، وبعضهم يعلن إسلامه .

الجوانب الإيجابية والسلبية في المنهج الاستشراقي:

(أ) الجوانب الإيجابية:

وتتمثل الجوانب الإيجابية للمستشرقين في الأمور التالية[2]:

١ - يخدم المستشرقون أهدافهم التي وضعوها لأنفسهم بإخلاص تام لهذه الأهداف وإتقان إلى أقصى حد وبكل الوسائل، وعندما أراد المستشرق الهولندي (سنوك هورجرونيه) أن يكتب كتابا عن مكة لم تثنه عن عزمه لدراسة مكة على الطبيعة أنه مسيحي لا يجوز له أن يدخل مكة، فانتحل اسما إسلاميا هو

---

(١) موقف المسلم من الدراسات الاستشراقية ص ٢٩، تأليف محمد علوي مالكي.

(٢) انظر لذلك. أضواء على الاستشراق والمستشرقين. للدكتور/ محمد دياب والاستشراق والدراسات الإسلامية للدكتور/ على النملة والاستشراق والمستشرقون للدكتور/ مصطفى السباعي.

عبدالغفار، وزار مكة عام ١٨٨٤م وأقام هناك مدة خمسة أشهر، وكان يجيد العربية كأحد أبنائها. وبعد هذه الرحلة كتب عن مكة كتابين أولهما:

" الحج إلى مكة " ، وثانيهما: " مكة وجغرافيتها في القرن التاسع عشر " — في جزأين — وصف فيه مكة وصفاً دقيقاً شاملاً مع خرائط عديدة.

والمستشرقون بصفة عامة لديهم صبر عجيب ونادر في البحث والدراسة وإحاطة تامة بالعديد من اللغات القديمة والحديثة. وقد أشار الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى "الإعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة إطلاعهم وحسن طريقتهم".

٢- جمع المخطوطات العربية من كل مكان وبشتى السبل، والعمل على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة، وفهرستها فهرسة نافعة تصف المخطوط وصفاً دقيقاً، وبذلك وضعت تحت تصرف الباحثين الراغبين في مقر وجودها أو طلب تصويرها بلا روتين أو إجراءات معقدة، وقد قام مثلاً "الوارد" **Ahlwardt** بوضع فهرس للمخطوطات العربية في مكتبة "برلين" في عشرة مجلدات بلغ فيه الغاية فناً ودقة وشمولاً، وصدر هذا الفهرس في نهاية القرن التاسع عشر، واشتمل على فهرس لنحو عشرة آلاف مخطوط.

وقد قام المستشرقون في كافة الجامعات والمكتبات الأوروبية بفهرسة المخطوطات العربية فهرسة دقيقة. وتقدر المخطوطات العربية الإسلامية في مكتبات أوربا بعشرات الآلاف، بل قد يصل عددها إلى مئات الآلاف.

وهنا أيضاً كلمة حق يجب أن تقال وهي أن انتقال هذا العدد الهائل من المخطوطات إلى أوربا بوسائل شرعية أو غير شرعية قد هيأ لها أحدث وسائل الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة ، ورب ضارة نافعة .

٣- التوفر على موضوع معين من الدراسات العربية والإسلامية وقضاء العمر كله في البحث والاستقصاء لاستيفاء شتى جوانبه. ولهذا نجد أن لديهم معرفة جيدة بكل ما ينشر عن الدراسات الإسلامية والعربية في بلادنا العربية ومكتباتهم الخاصة والعامة عامرة بشتى المراجع العربية والإسلامية قديمها وحديثها. وهناك حقيقة يعرفها كل من خالط المستشرقين وهي أن المستشرق المتمكن لا تأخذه العزة بالإثم إذا ما نبهته إلى خطأ وقع فيه نتيجة لعدم فهمه روح اللغة العربية.

(ب) الجوانب السلبية في المنهج الاستشراقي:

وبعد هذه النظرة التي ألقيناها على ما للمستشرقين من إيجابيات يحق لنا الآن أن ننبه إلى الجوانب السلبية في تفكيرهم ودراستهم. وتنصب النواحي السلبية بصفة أساسية على دراستهم عن الإسلام وما يتصل به. وفيما يلي نعرض نماذج من هذه السلبيات:

١- يعد الاستشراق أسلوباً خاصاً في التفكير يبنى على تفرقة أساسية بين الشرق والغرب. "فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا" كما قال الشاعر الاستعماري المشهور "كبلنج" **Kipling**. فالغربيون عقليون محبون للسلام متحررون منطقيون وقادرون على اكتساب قيم حقيقية، أما الشرقيون فليس لهم من ذلك كله شيء.

ولكن هناك حقيقة هامة يتجاهلها المستشرقون ببساطة، وهي أن الحضارة الغربية — التي يصفونها باعتزاز بأنها حضارة مسيحية — مبنية في الأصل على تعاليم رجل شرقي وهو المسيح عليه السلام، وعلى ما نقلوه عن العرب من علوم عربية ومن تراث قديم تطور على أيدي العرب. وهذه الحقيقة تجعل هذه التفرقة المبدئية إلى شرق وغرب، والتي يعتمد عليها الاستشراق أمراً مخالفاً للمنطق. فالمسيحية دين شرقي. والزعم بأن الغرب متقدم لأنه يدين بالمسيحية

والشرق مختلف لأنه يدين بالإسلام، زعم لا أساس له من العلم ولا من الواقع، فالتقدم الذي يشهده الغرب اليوم في مجال العلم والتكنولوجيا لا علاقة له بالمسيحية كدين، والتخلف الذي يعاني منه الشرق لا يتحمل الإسلام وزره. فهذا التخلف يعد – كما يقول "مالك بن نبي" –رحمه الله– : عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به، كما يزعم الزاعمون.

٢– يعمد المستشرقون إلى تطبيق المقاييس المسيحية على الدين الإسلامي وعلى نبيه. فالمسيح – في نظر المسيحيين – هو أساس العقيدة، ولهذا تنسب المسيحية إليه. وقد طبق المستشرقون ذلك على الإسلام، واعتبروا محمداً يعني بالنسبة للمسلمين ما يعنيه المسيح بالنسبة للمسيحية، ولهذا أطلقوا على الإسلام – اسم المذهب المحمدي **Mohammedanism** ولكن هناك سبب آخر لاستخدام هذه الوصف لدى الكثيرين منهم، وهو إعطاء الانطباع بأن الإسلام دين بشري من صنع محمد وليس من عند الله.

أما نسبة المسيحية إلى المسيح فلا تعطي هذا الانطباع لديهم، لاعتقادهم بأن المسيح ابن الله. وتتم مقارنة أخرى بين محمد والمسيح يكون المسيح فيها هو المقياس: فمحمد مزواج وشهواني في مقابل المسيح العفيف الذي لم يتزوج، ومحمد محارب وسياسي أما يسوع فهو مسالم مغلوب على أمره ومعذب يدعو إلى محبة الأعداء. وهكذا.

٣– الخلط بين الإسلام كدين وتعاليم ثابتة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وبين الوضع المتردي للعالم الإسلامي في عالم اليوم، فإسلام الكتاب والسنة يعد في نظر مستشرق معاصر مثل كيسلنج إسلاماً ميتاً.

٤– التأكيد على أهمية الفرق المنشقة عن الإسلام، كالبابية والبهائية والقاديانية والباطنية، وغيرها من فرق قديمة وحديثة، وتعميق الخلاف بين السنة والشيعة،

ودائماً يعتبرون المنشقين أصحاب فكر ثوري تحرري عقلي، ودائماً يــهتمون بكل غريب وشاذ، ودائماً يقيسون ما يرونه في العالم الإسلامي على ما لديـهم من قوالب مصبوبة جامدة. وقد أشار المستشرق رودنسون إلى ذلك حين قال: "ولم ير المستشرقون في الشرق إلا ما كانوا يريدون رؤيته، فـاهتموا كثـيراً بالأشياء الصغيرة والغريبة، ولم يكونوا يريدون أن يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التي بلغتها أوروبا، ومن ثم كانوا يكرهون النهضة فيه".

٥- يفتقد المرء الموضوعية في كتابات معظم المستشرقين عن الدين الإسـلامي، في حين أنهم عندما يكتبون عن ديانات وضعية مثل البوذية والهندوكية وغيرهـا يكونون موضوعيين في عرضهم لها. فالإسلام فقط من بين كل الديانات الـتي ظهرت في الشرق والغرب هو الذي يتعرض للهجوم والمسلمون فقط من بـين الشرقيين جميعاً هم الذين يوصمون بشتى الأوصاف الدنيئة. ويتساءل المـرء: لماذا؟.

ولعل تفسير ذلك يعود إلى أن الإسلام كان يمثل بالنسـبة لأوروبـا صدمـة مستمرة. فقد كان الخوف من الإسلام هو القاعدة. وحتى نهاية القرن السـابع عشر كان "الخطر العثماني" رابضاً عند حدود أوروبا ويمثل — في اعتقـادهم — تهديداً مستمراً بالنسبة للمدنية المسيحية كلها.

ولهذا يمكن القول — كما يقول ادوارد سعيد — بأن الاستشراق من الناحيـة النفسية يعد صورة جنون الاضطهاد. فالإسلام إذاً حتى في عصر ضعف أتباعه لا يزال يمثل تحدياً على كافة المستويات. فهل يعي المسلمون هذه الحقيقة؟.

ومن هنا يمكن فهم ما يقوله "موير" **Muir** : إن سيف محمد والقرآن هما أكثر الأعداء الذين عرفهم العالم حتى الآن عناداً ضد الحضارة والحرية الحقيقيـة". وما يزعمه فون جرونيباوم من (أن الإسلام ظاهرة فريدة لا مثيل لهـا في أي

دين آخر أو حضارة أخرى، فهو دين غير إنساني وغير قادر علــى التطــور والمعرفة الموضوعية. وهو دين غير أخلاقي وغير علمي واستبدادي)[1].

وهكذا يتضح الحقد الدفين على الإسلام باستمرار بمثل هذه الافتراءات الــتي ليس لها في سوق العلم نصيب.

٦- يعطي الاستشراق لنفسه في دراسته للإسلام موقف ممثل الاتهامات والقــاضي. فبينما نجد مثلاً أن علم التاريخ يحاول أن يفهم فقط ولا يضع موضع الشــك أسس المجتمع الذي يدرسه، نجد الاستشراق يعطي لنفسه حق الحكم، بل وحق الاتهام والرفض للأسس الإسلامية التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، وذلــك ناتج عن نوايا مسبقة لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون نوايا علمية صافيــة كما يدعي المستشرق رودي بارت.

٧- تحالف فريق من المستشرقين مع الاستعمار الذي أذل العالم الإسلامي حقبة مــن الزمان في العصر الحديث. ويقول المستشرق المعاصر "اشتيفان فيلد" بصــدد الإشارة إلى تلك الفئة من المستشرقين: "والأقبح من ذلك أنه توجــد جماعــة يسمون أنفسهم مستشرقين، سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في ســبيل مكافحة الإسلام والمسلمين. وهذا واقع مؤلم لابد أن يعترف به المستشــرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة".

ومن بين الأمثلة العديدة في هذا الصدد نذكر المستشرق "كــارل هيــنريش بيكر" "ت ١٩٢٣م" مؤسس مجلة الإسلام الألمانية. فقد قام بدراسات تخــدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في أفريقيــا. أمــا "بــارثيد" Batthoid "ت ١٩٣٠" مؤسس مجلة Mir Islama الروسية، فقد تم تكليفه عــن طريــق

(١) نقلاً من كتاب الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. للدكتور/ محمود زقزوق

الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية في آسيا الوسطى. أما عالم الإسلاميات الهولندي الشهير "سنوك هورجرونيه" "ت ١٩٣٦" فقد لعب دوراً هاماً في تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية في المناطق الهولندية في الهند الشرقية، وشغل مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية الهولندية في إندونيسيا، أما المستشرق الفرنسي المعروف ماسنيون، فقد كان مستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية في شئون شمال أفريقيا. وغير هؤلاء كثيرون وضعوا أنفسهم وعلمهم ودراستهم في خدمة الاستعمار ضد الإسلام والمسلمين.

٨- الدعوة إلى إصلاح الإسلام: يزعم المستشرقون أن الإسلام دين جامد، وأنه لم يعد مسايراً لروح العصر. ولذلك فهو في حاجة إلى إصلاح جذري ، وهو زعم تبنته الإدارة الأمريكية في محاربتها للإرهاب وذلك بالمطالبة من الحكومات الإسلامية بتطوير التعليم الديني.

أهداف الاستشراق: [(١)].

أ- هدف علمي مشبوه، ويهدف إلى:

١- التشكيك بصحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ومصدرها الإلهي، فجمهورهم ينكر أن يكون الرسول نبياً موحى إليه من عند الله جل شأنه، ويتخبطون في تفسير مظاهر الوحي التي كان يراها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً، وبخاصة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فمن المستشرقين من يرجع ذلك إلى "صرع" كان ينتاب النبي صلى الله عليه وسلم حيناً بعد حين، ومنهم من يرجعه إلى تخيلات كانت تملأ ذهن النبي صلى الله عليه

(١) الاستشراق والمستشرقون للدكتور مصطفى السباعي ص ٢٠ .

وسلم، ومنهم من يفسرها بمرض نفسي، وهكذا، كأن الله لم يرسل نبياً قبله حتى يصعب عليهم تفسير ظاهرة الوحي، ولما كانوا كلهم ما بين يهود ومسيحيين يعترفون بأنبياء التوراة، وهم كانوا أقل شأناً من محمد صلى الله عليه وسلم في التاريخ والتأثير والمبادئ التي نادى بها، كان إنكارهم لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم تعنتاً مبعثه التعصب الديني الذي يملأ نفوس أكثرهم كرهبان وقسس ومنصِّرين.

ويتبع ذلك إنكارهم أن يكون القرآن كتاباً منزلاً عليه من عند الله عز وجل، وحين يفحمهم ما ورد فيه من حقائق تاريخية عن الأمم الماضية مما يستحيل صدروه عن أمي مثل محمد صلى الله عليه وسلم، يزعمون ما زعمه المشركون الجاهليون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من أنه استمد هذه المعلومات من أناس كانوا يخبرونه بها[1] ويتخبطون في ذلك تخبطاً عجيباً، وحين يفحمهم ما جاء في القرآن من حقائق علمية لم تعرف وتكتشف إلا في هذا العصر، يرجعون ذلك إلى ذكاء النبي صلى الله عليه وسلم، فيقعون في تخبط أشد غرابة من سابقه.

٢- ويتبع إنكارهم لنبوة الرسول وسماوية القرآن، إنكارهم أن يكون الإسلام ديناً من عند الله، وإنما هو ملفق - عندهم - من الديانتين اليهودية والمسيحية، وليس لهم في ذلك مستند يؤيده البحث العلمي وإنما هي ادعاءات تستند على بعض نقاط الالتقاء بين الإسلام والديانتين السابقتين.

ويلاحظ أن المستشرقون اليهود - أمثال جولد تسهير وشاخت - هم أشد حرصاً على ادعاء استمداد الإسلام من اليهودية وتأثيرها فيه، أما المستشرقون

(١) كما حكى القرآن الكريم في قوله تعالى (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ..) .

المسيحيون فيجرون وراءهم في هذه الدعوى، إذ ليس في المسيحية تشريع يستطيعون أن يزعموا تأثر الإسلام به وأخذه منه، وإنما فيه مبادئ أخلاقية زعموا أنها أثرت في الإسلام، ودخلت عليه منها، كأن المفروض في الديانات الإلهية أن تتعارض مبادؤها الأخلاقية، وكأن الذي أوحى بدين هو غير الذي أوحى بدين آخر، فتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

٣- التشكيك في صحة الحديث النبوي الذي اعتمده علماؤنا المحققون، ويتذرع هؤلاء المستشرقون بما دخل على الحديث النبوي من وضع ودس، متجاهلين تلك الجهود التي بذلها علماؤنا لتنقية الحديث الصحيح من غيره، مستندين إلى قواعد بالغة الدقة في التثبت والتحري، مما لم يعهد عندهم في ديانتهم عشر معاشره في التأكيد من صحة الكتب المقدسة عندهم، وقد ناقشهم في ذلك الدكتور السباعي نقاشاً علمياً في كتابي: "السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي" الذي صدر حديثاً.

والذي حملهم إلى ركوب متن الشطط في دعواهم هذه، ما رأوه في الحديث النبوي الذي اعتمده علماؤنا من ثروة فكرية وتشريعية مدهشة، وهم لا يعتقدون بنبوة الرسول، فادعوا أن هذا لا يعقل أن يصدر كله عن محمد الأمي بل هو عمل المسلمين خلال القرون الثلاثة الأولى، فالعقدة النفسية عندهم هي عدم تصديقهم بنبوة الرسول، ومنها ينبعث كل تخبطاتهم وأوهامهم.

٤- التشكيك بقيمة الفقه الإسلامي الذاتية، ذلك التشريع الهائل الذي لم يجتمع مثله لجميع الأمم في جميع العصور، لقد سقط في أيديهم حين إطلاعهم على عظمته وهم لا يؤمنون بنبوة الرسول، فلم يجدوا بداً من الزعم بأن هذا الفقه العظيم مستمد من الفقه الروماني، أي أنه مستمد منهم — الغربيين — وقد بين علماؤنا الباحثون تهافت هذه الدعوى، وفيما قرره مؤتمر القانون المقارن

المنعقد بلاهاى من أن الفقه مستقل بذاته وليس مستمداً من أي فقه آخر، مما يفحم المتعنتين منهم، ويقنع المنصفين الذين لا يبغون غير الحق سبيلاً.

٥– التشكيك في قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمي لتظل عالة على مصطلحاهم التي تشعرنا بفضلهم وسلطاهم الأدبي علينا، وتشكيكهم في غنى الأدب العربي، وإظهاره مجدباً فقيراً لنتجه إلى آداهم، وذلك هو الاستعمار الأدبي الذي يبغونه مع الاستعمار العسكري الذي يرتكبونه..

تلك هي الأهداف العلمية التي يعمل لها أكثرهم أو جمهرهم الساحقة.

ب– الأهداف الدينية والسياسية:

وتتلخص فيما يلي:

١– تشكيك المسلمين بنبيهم وقرآهم وشريعتهم وفقههم، ففي ذلك هدفان ديني واستعماري.[1]

٢– تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري، يدعون أن الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان، ولم يكن العرب والمسلمون إلا نقله لفلسفة تلك الحضارة وآثارها، لم يكن لهم إبداع فكري ولا ابتكار حضاري، وكان في حضارهم كل النقائص، وإذا تحدثوا بشيء عن حسناها – وقليلاً ما يفعلون – يذكروها على مضض مع انتقاص كبير.

٣– إضعاف ثقة المسلمين بتراثهم، وبث روح الشك في كل ما بين أيديهم من قيم وعقيدة ومثل عليا، ليسهل على الاستعمار تشديد وطأته عليهم، ونشر ثقافته الحضارية فيما بينهم، فيكونوا عبيداً لها، يجرهم حبها إلى جبهم أو إضعاف روح المقاومة في نفوسهم.

---

(١) نفس المصدر صـ ٢٣ .

٤- إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أقطارهم عن طريق إحياء القوميات التي كانت لهم قبل الإسلام، وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوبهم، وكذلك يفعلون في البلاد العربية، يجهدون لمنع اجتماع شملها ووحدة كلمتها بكل ما في أذهانهم من قدرة على تحريف الحقائق، وتصيد الحوادث الفردية في التاريخ ليصنعوا منها تاريخاً جديداً يدعو إلى ما يريدون من منع الوحدة بين البلاد العربية والتفاهم على الحق والخير بين جماهيرها.

ج- **أهداف علمية خالصة :** لا يقصد منها إلا البحث والتمحيص، ودراسة التراث العربي والإسلامي دراسة تجلو لهم بعض الحقائق الخافية عنهم، وهذا الصنف قليل عدده جداً، وهم مع إخلاصهم في البحث والدراسة لا يسلمون من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحق، إما لجهلهم بأساليب اللغة العربية، وإما لجهلهم بالأجواء الإسلامية التاريخية على حقيقتها، فيحبون أن يتصوروها كما يتصورون مجتمعاتهم، ناسين الفروق الطبيعية والنفسية والزمنية التي تفوق بين الأجواء التاريخية التي يدرسونها، وبين الأجواء الحاضرة التي يعيشونها.

وهؤلاء غالباً ما نستشهد بهم في كثير من الأحيان، وإن كان صوتهم يبدو خافتاً في الأوساط العملية الغربية[1].

دوافع الاستشراق:

١ - الدافع الديني:

فقد بدأ بالرهبان واستمر كذلك حتى عصرنا الحاضر كما سنرى - وهؤلاء كان يهمهم أن يطعنوا في الإسلام ويشوهوا محاسنه ويحرفوا حقائقه ليثبتوا لجماهيرهم التي تخضع لزعامتهم الدينية أن الإسلام - وقد كان يومئذ الخصم

---

(١) ص٢٤ من الاستشراق والمستشرقون.

الوحيد للمسيحية في نظر الغربيين — دين لا يستحق الانتشار، وأن المسلمين قوم همج لصوص وسفاكو دماء، يحثهم دينهم على الملذات الجسدية، ويبعدهم عن كل سمو روحي وخلقي، ثم اشتدت حاجتهم إلى هذا الهجوم في العصر الحاضر بعد أن رأوا الحضارة الحديثة قد زعزعت أسس العقيدة عند الغربيين وأخذت تشككهم بكل التعاليم التي كانوا يتلقونها عن رجال الدين عندهم فيما مضى، فلم يجدوا خيراً من تشديد الهجوم على الإسلام لصرف أنظار الغربيين عن نقد ما عندهم مبادئ من عقدية وكتب مقدسة، وهم يعلمون ما تركته الفتوحات الإسلامية الأولى ثم الحروب الصليبية ثم الفتوحات العثمانية في أوروبا بعد ذلك في نفوس الغربيين من خوف من قوة الإسلام وكره لأهله، فاستغلوا هذا الجو النفسي وازدادوا في الدراسات الإسلامية[٢].

وهنالك الهدف التنصيري الذي لم يتناسوه في دراساتهم العلمية وهم قبل كل شيء رجال دين، فأخذوا يهدفون إلى تشويه سمعة الإسلام في نفوس رواد ثقافتهم من المسلمين لإدخال الوهن إلى العقيدة الإسلامية والتشكيك في التراث الإسلامي والحضارة الإسلامية وكل ما يتصل بالإسلام من علم وأدب وتراث.

٣ - الدافع الاستعماري:

لما انتهت الحروب الصليبية بهزيمة الصليبيين وهي في ظاهرها حروب دينية، وفي حقيقتها حروب استعمارية لم ييأس الغربيون من العودة إلى احتلال بلاد العرب فبلاد الإسلام، فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كل شؤونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات، ليتعرفوا على مواطن القوة فيها فيضعفوها، وإلى مواطن الضعف فيغتنموه، ولما تم لهم الاستيلاء العسكري والسيطرة السياسية

(٢) انظر : الاستشراق والمستشرقون، للدكتور: مصطفى السباعي، ص ١٦.

كان من دوافع تشجيع الاستشراق إضعاف المقاومة الروحيـــة والمعنويـــة في نفوسنا، وبث الوهن والارتباك في تفكيرنا وذلك عن طريق التشكيك بفـــائدة ما في أيدينا من تراث، وما عندنا من عقيدة وقيم إنسانية، فنفقد الثقة بأنفسنا، ونرتمي في أحضان الغرب نستجدي منه المقاييس الأخلاقية والمبادئ العقائديـة وبذلك يتم لهم ما يريدون من خضوعنا لحضارتهم وثقافتهم خضوعاً لا تقـــوم لنا من بعده قائمة.

انظر إليهم كيف يشجعون في بلادنا القوميات التاريخية التي عفى عليها الزمن، واندثرت منذ حمل العرب رسالة الإسلام، فتوحدت لغتهم وعقيدتهم وبلادهم، وحملوا هذه الرسالة إلى العالم فأقاموا بينهم وبين الشعوب روابـــط إنســـانية وتاريخية وثقافية ازدادوا بها قوة وازدادت الشعوب بها رفعة وهداية، إنهم مـــا برحوا منذ نصف قرن يحاولون إحياء الفرعونية في مصر، والفينيقية في ســـوريا ولبنان وفلسطين، والآشورية في العراق، وهكذا. ليتسنى لهم تشـــتيت شملنـــا كأمة واحدة، وليعوقوا قوة الاندفاع التحررية عن عملها في قوتنـــا وتحررنـــا وسيادتنا على أرضنا وثرواتنا وعودتنا من جديد إلى قيادة ركب الحضــــارة، والتقائنا مع إخواننا في العقيدة والمثل العليا والتــــاريخ المشـــترك والمصـــالح المشتركة.

٣ - الدافع التجاري:

ومن الدوافع التي كان لها أثرها في تنشيط الاستشراق، رغبـــة الغربيـــين في التعامل معنا لترويج بضائعهم وشراء مواردنا الطبيعية الخام بـــأبخس الأثمـــان ولقتل صناعتنا المحلية التي كانت لها مصانع قائمة مزدهرة في مختلـــف بـــلاد العرب والمسلمين.

٤ - الدافع السياسي:

وهنالك دافع آخر أخذ يتجلى في عصرنا الحاضر بعد استقلال أكثر الدول العربية والإسلامية، ففي كل سفارة من سفارات الدول الغربية لدى هذه الدول سكرتير أو ملحق ثقافي يحسن اللغة العربية ليتمكن من الاتصال برجال الفكر والصحافة والسياسة فيتعرف إلى أفكارهم، ويبث فيهم من الاتجاهات السياسية ما تريده دولته، وكثيراً ما كان لهذا الاتصال أثره الخطير في الماضي حين كان السفراء الغربيون — ولا يزالون في بعض البلاد العربية والإسلامية — يبثون الدسائس للتفرقة بين الدول العربية بعضها مع بعض، وبين الدول العربية والدول الإسلامية، بحجة توجيه النصح وإسداء المعونة بعد أن درسوا تماماً نفسية كثيرين من المسؤولين في تلك البلاد، وعرفوا نواحي الضعف في سياستهم العامة، كما عرفوا الاتجاهات الشعبية الخطيرة على مصالحهم واستعمارهم.

٥ - الدافع العلمي:

ومن المستشرقين نفر قليل جداً أقبلوا على الاستشراق بدافع من حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغتها، وهؤلاء كانوا أقل من غيرهم خطأ في فهم الإسلام وتراثه، لأنهم لم يكونوا يتعمدون الدس والتحريف، فجاءت أبحاثهم الجمهرة الغالبة من المستشرقين، بل إن منهم من اهتدى إلى الإسلام وآمن برسالته. على أن هؤلاء لا يوجدون إلا حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة ما يمكنهم من الانصراف إلى الاستشراق بأمانة وإخلاص، لأن أبحاثهم المجردة عن الهوى، لا تلقى رواجاً، لا عند رجال الدين، ولا عند رجال السياسة، ولا عند عامة الباحثين، ومن ثمة فهي لا تدر عليهم ربحاً ولا مالاً، ولهذا ندر وجود هذه الفئة في أوساط المستشرقين.

وختاماً فالاستشراق وليد فكرة واحدة، فكرة الغزو الاستعماري والعقائدي الذي نادى به المنصرون بقصد التمكين للحضارة الغربية المسيحية المادية من السيطرة على الحضارة الإسلامية وإلغاء دورها في الحياة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية وتشكيك المسلمين بدينهم ومحاولة إبعادهم وغيرهم عنه، ولقد سلك الاستشراق طريق البحث والتأليف العلمي والأكاديمي – زعموا – فاستخدم الكتاب، والمقال وكرسي التدريس خصوصاً في الجامعات – والمؤتمرات والندوات، فعل ذلك كله وهو يتجلبب بجلباب العلم والبحث العلمي، ولكنه كان يحمل معول الهدم لهذه الأمة في عقيدتها وثقافتها وأسلوب حياتها، لهذا يجب ألا ينظر إلى الاستشراق على أنه حركة أكاديمية تسعى إلى احتواء أبناء المسلمين الدارسين في الغرب وتشويش أفكارهم وتغريبهم فقط، ولكن بالإضافة إلى ذلك الاستشراق يمتد إلى أكثر من هذا، فيما يستفيد منه رجال الاقتصاد، والعلوم الاجتماعية في توجيه أفكار الدارسين من أبناء المسلمين نحو سياسة غربية منحرفة عن تعاليم الإسلام وتشريعاته، وهذا ما نسمعه ونقرأه في شتى وسائل الإعلام من أفكار وآراء لا تمت بصلة إلى الإسلام وحضارته.

وبهذا يتبين لنا أن الاستشراق بما يحمله من أحقاد وضغائن – عدا القليل منهم – كان أحد أوجه التعامل الخشن من جانب الغرب تجاه الإسلام والمسلمين، بل هو دليل واضح على إفلاس الحضارة الغربية في التعاطي مع الإسلام بأسلوب حواري حضاري كما هو شأن الإسلام.

الاحتلال العسكري الغربي

ليس يخاف على أحد أن بوناً واسعاً وفرقاً شاسعاً بين فتح المسلمين للبلاد التي فتحوها وبين همجية الغرب ، لا نقول ذلك تعصباً ولكن بذا شهد المنصفون من الغرب.

ففتح العرب للأندلس مثلاً لم يكن فتحاً عسكرياً - كما قال جلرودي - إذ لم يطأ أرض أسبانيا أكثر من سبعين ألف فارس عربي في حين كان سكان المنطقة أكثر من عشرة ملايين فقد جاء العرب بنظام أرقى كثيراً من النظام القائم ، وسرعان ما ظهروا بمظهر المحررين وذلك بتخليص عبيد الأرض من ربقة (القوط) وقد أكتفي المسلمون بالخراج . ففي الوقت الذي كانت فيه أوربا غارقة في فوضى الإقطاع كان العرب يبنون حضارة راقية متقدمة في أسبانيا .

فعندما ذهب القس الفرنسي (جربير) ليتعلم بجامعة قرطبة وعاد أتهم من أجل ما أكتسب من علمها بأنه تعامل مع الشيطان . وهو الذي نصب فيما بعد (بابا) باسم (سيلفستر الثاني). ولهذا يقول بلاسكو ايباريز في كتابة" تحت ظلال الكاتدرائية " إن أحياء أسبانيا لم يأت من الشمال مع الطغمة الهمجية بل من الوسط مع العرب الفاتحين .

ومن هنا يتجه رأي (أناتول فرانس) في قصة " الحياة المزهرة " في الحوار بين السيد (دوبوا) والسيدة (نوزيير) عن أشأم يوم في تاريخ فرنسا وكانت تجهل ذلك اليوم . فقال لها السيد (دوبوا) إنه يوم معركة "بواتيه[1] " عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام الهمجية الفرنجية.

---

(١) هي معركة بلاط الشهداء وقد هزم فيها الفرنجة المسلمين.

هذه شهادة بما كان يحمله الفاتح العربي في مسيرة التاريخ[١] .

أما ما يحمله أهل الحضارة الغربية فسوف نغض الطرف عن شهادة أصحاب البلاد الأصليين ، وأيضاً شهادة الواقع المعاش . ولكننا سنكتفي بشهادات جنرالات الحرب أصحاب الحملات العسكرية والذين أطلقوا خطأ على حملاتهم اسم الاستعمار . تعمية على أصحاب البلاد عن الهدف الحقيقي لهذا الاحتلال .

فما كان المحتل يوماً مستعمراً بل مخرباً مدمراً . وهو إن جاز التعبير مصاصٌ لدماء وقوت واقتصاد البلاد .

وقد كانوا دائماً في كل مرحلة اجتياح أوربي يتذرعون بوضع حدٍ للاسترقاق وأنهم يهدفون إلى إرساء قواعد للعدل والحرية وحقوق الإنسان تماماً كما تتذرع أمريكا اليوم بمحاربة بالإرهاب.

ولعل أفضل ما نعرّف به هذا الاحتلال هذه الكلمات التي ننقلها هنا عن الجريدة الرسمية من الخطب التي ألقاها الجنرال (جول فيري) في مجلس النواب يوم ١٨٨٥/٧/٢٨م حيث خطب في المجلس قائلاً : أجل إن لنا سياسة استعمارية ، سياسة توسع استعماري مبنية على نظام ، وهذه السياسة ترتكز على قواعد ثلاث اقتصادية ، إنسانية ، سياسية .

وفي الحجة الاقتصادية يرى أن الشكل الحديث للاستعمار هو ذلك الشكل الذي يتوافق مع الشعوب التي يكون لها إما فائض من رأس الأموال ، وإما فائض من المنتجات ثم يقول هذا الجنرال (إن المستعمرات هي بالنسبة للبلدان الغنية توظيف لرؤوس الأموال بأحسن الشروط .. لكن أيها السادة هناك جانب أهم لهذه المسألة. إن المسألة الاستعمارية بالنسبة للبلدان المناط بها بحكم طبيعة صناعتها نفسها تصدير

---

(١) أنظر كتاب من أجل حوار بين الحضارات لرجاء جارودي ص ٨ .

عظيم، هي مسالة الأسواق نفسها . ففي الأزمة الــتي تجتازهـــا جميــع الصناعـــات الأوربية! إن تأسيس مستعمرة هو خلق سوق .

أما الحجة الإنسانية . وهنا يسأل أحد النواب . ما هي تلك الحضـــارة الــتي تفرض بطلقات المدفع ؟

وهنا يجيب الجنرال (أيها السادة يجب أن نتكلم بصوت أعلى وأكثر صحـــة يجب أن نقولها صراحة : إن للأحناس الأرقي حق بازاء الأحناس الأدنى).

هذا هو تبرير الاستعمار والاحتلال عند من يدعون الدفـــاع عـــن حقـــوق الإنسان وعند من ينادون ليلاً ونهار بالمساواة والحرية والحضارة!

أما الحجة السياسية. فانظروا ماذا يقول هذا الجنرال الفرنسي. (إن سياســـة التوسع الاستعماري تلك التي جعلتنا نذهب في عهد الإمبراطورية إلى سايجون والهنـد الصينية، تلك التي قادتنا إلى تونس، وهذه السياسة الاستعمارية التوســـعية كـــانت مستوحاة من حقيقة وهي: إن بحريتنا لا تستطيع على سطح البحار أن تستغني عـــن ملاجيء حصينة منيعة للدفاع ومراكز التموين . من أجل هذا كنا بحاجة إلى تونـــس وغيرها).

(إن الأمم – يقول الجنرال – في هذا الزمان الذي نعيش فيه لا تكون عظيمـــة إلا بالنشاط التي تبذله وتظهره وهو لا يكون بالإشعاع السلمي ... يجب على بلادنا أن تسهل الوسائل لعمل ما تعمله جميع الأمم الأخرى، وبمـــا أن سياســـة التوســـع الاستعماري هي الدافع العام الذي يجرف في الساعة الحاضرة جميع القوى الأوربيـــة فلابد أن ننال نصيبنا[1] .

---

(١) نقلاً من كتاب من أجل حوار بين الحضارات ص ٥٥.

إذاً هذه هي حجج الاستعمار الفرنسي كشفها هذا الجنرال بكل صراحة وتبجح ويكفي أن نعلم فضلاً عن الخسائر البشرية والقيمية - إن بلداً مثل الجزائر كانت قبل قدوم فرنسا ١٨٣٠ كانت من البلاد المصدرة للقمح ثم صارت بعد أن عاث فيها الفرنسيون وحولوا زراعة القمح إلى كروم ، صارت بلداً مستورداً للقمح ومصدراً للنبيذ.

إن الإدارة الاستعمارية للدول سرعان ما تصبح الأداة العظمى من الاستغلال الاقتصادي للشركات الخاصة بفضل البوليس والجيش والمحاكم .

ولقد شرح أبناء الحضارة الحديثة ودعاة المدنية والحضارة هدفهم من الاستعمار، ولنصغ إلى شهادة واحد من أشهر المشاهير بينهم وهو المارشال (بوجو) الذي صرح في خطبته في مجلس النواب يوم ١٨٤٥/١/٢٤ قائلاً.

(أتعرفون لماذا توغلنا حتى بسكرا والى ديار ولد نائل الذين يقيمون على بعد ١٣٠ كيلو متر من السواحل ؟ من أجل أن نفتح لأنفسنا طرقاً تجارية في الداخل.

لقد فعلنا ما صنعه الإنجليز، حرب المصلحة ، مشينا نشهر السيف في يد والمتز باليد الأخرى ، ومنذ هذه الغزوات حصل تقدم هائل في تجارة الجزائر .. تلك هي الأسباب التي من أجلها بسطنا نفوذنا .. لقد عينا زعماء - يقصد عملاء - يحافظون على الأمن لصالح تجارتنا . تحت أوامرنا وتحت إرادتنا)[1]

وكان الجنرال جيرارد وزير الحربية يكتب غداة الإنزال في سيدي فرج عام ١٨٠٣ مذكراً بأهداف الفتح العسكري للجزائر.

---

(١) صـ ٥٩ من كتاب حوار الحضارات .

إنه يرتكز على أهم الضرورات وأوثقها ارتباطا باستقرار النظـــام العـــام في فرنسا وحتى في أوربا وهي فتح مجال واسع للفائض من السكان عندنا ومن اجـــل تصريف منتجات مصانعنا السلعية عوضاً عن منتجات أخرى غريبة عـــن تربتنـــا[١] وهذه شهادة الكولونيل دى مونتانياك في رسائل جندي. يقول هذا الفارس الهمام.

(لقد أقمنا وسط البلاد .. نحرق ونسلب ونخرب كل شيء، ومع ذلك فـــإن عدداً من القبائل كان ما يزال يقاوم ، لكننا حاصرناهم من جميع الجهات لنأخذ منهم نساءهم وأطفالهم ومواشيهم ١٨٤٣/٦/٢، وتسألني في فقرة من رسالتك ماذا كنـــا نفعل بالنساء اللواتي كنا نسبيهن . لقد كنا نحتفظ ببعضـــهن كرهـــائن ، ونبـــادل الأخريات بخيول والباقي كان يباع في المزاد كالبهائم).

ولا شك أن هذا السلوك من رجال الحضارة الغربية بل ومن بلاد النور بـــلاد الثورة التي قامت من أجل الحرية والعدل والمساواة.

ويحكى مؤلف كتاب (أفريقيا الفرنسية) أنه في عام واحد وفي ثلاث جـــهات مختلفة قام ثلاثة عقداء فرنسيون بإهلاك ثلاث قبائل إهلاكاً تاماً (رجـــالاً ونســـاء وأطفالاً) لجأت إلى المغاور وذلك بإحراقها وتركها تختنق وهي حية، كان ذلك عـــام ١٨٤٥. ويروي أحد الشهود: (أي قلم يستطيع وصف هذا المشهد؟! أن تـــرى في وسط الليل، تحت ضوء القمر هيئة أركان فرنسية منهمكة في إيقاد نار جهنميـــة، وأن تسمع الأنات المختنقة الصادرة عن الرجال والنســـاء والأطفـــال والحيوانـــات وقرقعة الصخور المتكلة وهي تنهار .. وفي الصباح عندما جرت محاولة إخلاء مدخل الكهوف. كانت أكداس الأبقار والحمير والخراف مطروحة .. وبين جثث الحيوانـــات كنت تجد جثث الرجال والنساء والأطفال ، ولقد رأيت رجلاً ميتاً ركبتـــاه علـــى

---

(١) نفس المصدر

الأرض ويداه مجمدتان على قرن ثور، وكانت أمامه امرأة تمسك بطفلها بين ذراعيها فإن هذا الرجل قد اختنق في اللحظة التي كان يحاول حماية أسرته من هياج الحيوان .. وقد أحصينا في هذا اليوم ٧٦٠ جثة).

ويقول قائد القوة الفرنسية التي نفذت هذا العمل الحضاري الرائع!!!

(إنني آخذ على عاتقي هذا العمل . فلابد من إعطاء الجمهور (الجزائري) أفكاراً أكثر صحة عن ضرورة الأفعال القاسية من أجل الانتهاء بالبلاد إلى الخضوع الحقيقي الذي لا يمكن أن يكون هناك بدونه لا استعمار ولا إدارة ولا حضارة فقبل الإدارة والتحضير والاستعمار يجب أن يكون الأهالي قد قبلوا قانوننا ولقد أثبتت آلاف الأمثلة أنهم لا يقبلونه إلا بالقوة ، وهذه القوة تكون عاجزة إن لم تصب الأشخاص والمصالح هذا هو منطق أصحاب الحضارة الغربية.

ونسمع إلى تقرير اللجنة الحكومية للتقصي لعام ١٨٨٣ . وهذه خلاصته (لقد جمعنا إلى أملاك الدولة أملاك المؤسسات الخيرية ، واستولينا على الممتلكات الخاصة دون تعويض ، بل إننا أكرهنا أناس على دفع نفقات هدم منازلهم ونفقات هدم جوامعهم .. ولقد دنسنا المعابد والمقابر وانتهكنا حرمة المنازل الحمى المقدس لدى المسلمين. فقتلنا أناساً يحملون تصاريح أمان ، وذبحنا لمجرد الشك سكاناً بأكملهم تبين فيما بعد أنهم أبرياء ، وقدمنا إلى المحاكمة رجالاً يشتهرون بأنهم قديسون في البلاد (رجال الدين) لأنهم كانوا يملكون ما يكفى من الشجاعة للتعرض لاندفاعاتنا الجنونية).

وليس لدينا أي تعليق على شهادات هؤلاء الأبطال سوى القول بأن التاريخ يعيد نفسه وهاهو الغرب بقيادة أمريكا يفعل بنا في القرن الواحد والعشرين ما فعلوه

من قبل إن في الحروب الصليبية وإن في حقبة الاحتلال في القرن التاسع عشر والعشرين.

ومن الختل الظن بأن أحفاد هؤلاء سوف يكونوا صنّاع سلام أو رعاة سلام. ولا خيار لنا أمام هؤلاء - صليبيون كانوا أم صهاينة - إلا أن نكون رجالاً.. فإن هؤلاء القوم لا يملأ أعينهم إلا القوة والرجولة بكل ما تحمل من معنى. وقتها سنكون جديرين بحمل راية الحوار.

لقد سعى الاحتلال الغربي - بكافة الأساليب والطرق - من فرض ثقافته وأفكاره على الشعوب المحتلة فلماذا ربط الاحتلال بين فرض سيطرته العسكرية، وبين فرض أساليب في الإدارة والتشريع والثقافة ؟ بصيغة أخرى، لماذا تواكب المد الاستعماري العسكري، مع الاستعمار الثقافي الذي صاحب القوة العسكرية ؟.

لقد أدرك الاحتلال أنه مادامت الأمة لها شخصيتها الحضارية، فإن النفاذ إليها ليس بالأمر السهل، لأن الثقافة والتاريخ في أمة ما يؤديان إلى شخصية وتعصب، ولابد للاستعمار من أن ينفذ إلى داخلها عن طريق فصلها عن تاريخها وجعلها غريبة عن ثقافتها، ونتيجة لاكتشاف هذا المبدأ قام الاحتلال الأوروبي بتخلية الأمم ذوات التاريخ العميق والثقافة العالمية من محتواها وفصلها عن تاريخها وجعلها غريبة عن ثقافتها وبعيدة عن نفسها، عن طريق الحيل العلمية الدقيقة وعلم الاجتماع المعقد الزكي، بحيث لا تجد شيئاً داخلها ولا تعرفه، فيقوم بمسخ تاريخها وثقافتها، وكل قيمها المعنوية والتقليدية وتحقيرها[1].

والحقيقة "إن الاستعمار يسدل دائماً الظلام على عملياته في هذا الميدان، حتى يبقى مسيطراً على الموقف، ولو كشفت الصدفة فجأة عن تفصيل من تفاصيل هذا

(١) العودة إلى الذات. للدكتور علي شريعتي، ص١٠٧.

الصراع، فسوف يبقى في إمكانه أن يسلم بهذا التفصيل للخصم، ويدخل الباقي في الظلام، كما تسلم الحية بجزء من ذيلها وتدخل حجرها لتنجو بذاتها، ولا يمكن وصف بيت العنكبوت خصوصاً إذا كانت خيوطه تأتي من بعيد، وهذا هي حقيقة الصراع الفكري وتلك هي لغته، لغة صامتة ليس لها معنى واضح إلا بالنسبة لمن عاش تجربة شخصية[1].

أول الوسائل التي يستخدمها الاستعمار من أجل ترسيخ التبعية الفكرية، إنه "يستعين بخريطة نفسية العالم الإسلامي، وهي خريطة تجري عليها التعديلات اللازمة كل يوم، يقوم بها رجال متخصصون، مكلفون برصد الأفكار، إنه يرسم خططه الحربية، ويعطي توجيهاته العملية على ضوء معرفة دقيقة لنفسية البلاد المستعمرة، معرفة تسوغ له تحديد العمل المناسب لمواجهة الوعي في تلك البلاد حسب مختلف مستوياته وطبقاته.

وفي سبيل تحقيق هذا الاستيعاب لنفسية البلاد المستعمرة، يستخدم الاستعمار سلاح "الأفكار" وذلك لأن البداية من عالم الأفكار ستترك آثارها حتماً على حركة المجتمع وتوجهاته، " إن الخصوم (الغرب) الذين يتنافسون على محور واشنطن — موسطو، للاستيلاء على عناصر القوة، سيلجأون إلى سلاح الأفكار، حيث أن قنابلهم الذرية عاجزة في المستقبل عن حل مشكلاتهم المعلقة".

ولذلك "يضرب الاستعمار كل قوة مناهضة له، تحت أي راية تجمعت، كما أنه يحول بينها وبين أن تتجمع تحت راية أكثر فعالية، وهذا الشرطان يحددان استراتيجية الاستعمار في الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، إنه يحول بين الفكر والعمل السياسي حتى يبقى الأول غير مثمر والثاني أعمى، فالاستعمار يلوح في

---

(١) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. مالك بن بني، ص ١٢٤.

مناسبات معينة، يستفز به الشعب المستعمر حتى يثير غضبه، ويغرقه في حالة شبيهة بالحالة التنويمية حيث يفقد شعوره، ويصبح عاجزاً عن إدراك موقعه، وعن الحكم عليه حكماً صحيحاً، فيوجد ضرباته وإمكانياته توجيهاً أعمى، وهكذا يجمد الاستعمار القوات التي تناضل ضده (الأفكار) يجمدها هكذا عند نقطة معينة، وتحت راية معينة[1].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩.

الحرب على الإرهاب

لا يشك عاقل في أن الحرب التي يشنها الغرب تحت قيادة الإدارة الأمريكية . على ما يسمى بالإرهاب أنما تدخل ضمن سياق الصراع الحضاري بين الغرب والإسلام وإذا أردنا أن نسمي الأشياء ونحددها تحديداً دقيقاً ونضع الأمور في نصابها دون مواربة أو محاباة فلنقل : إنها حرب على الإسلام بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى .

ومن الخطأ المحض ما ينادي به بعض مثقفينا من انه يجب على الإدارة الأمريكية تحديد معنى الإرهاب،إذا لسان الحال أبلغ من المقال كما أنه من السذاجة بمكان مطالبة الأمم المتحدة بوضع تعريف للإرهاب لأن هذه المنظمة بكل فروعها لا تسير الأمير فيها إلا وفق المطالب الأمريكية .

فالمنظمات الدولية تدار من داخل البيت الأبيض . وليس صحيحاً ما يشاع أن الأمين العام للأمم المتحدة هو (سيد قراره) بل هو في حقيقة الأمر (خيال مآته) إن صح التعبير .

وليس بخاف على أحد ان واقع الغرب بقيادة أمريكا قد حدد الإرهاب بأنه الإسلام أما كون العالم الغربي بقيادة أمريكا قد حددت الإرهاب تحديداً دقيقاً بأنه الإسلام وبأن الإرهابيين هم المسلمون فشواهد ذلك كثيرة منها :

١- ما تقوم به وسائل الإعلام الغربية – مسموعة أو مرئية أو مقروءة من التأكيد ليلاً ونهاراً من محاولات لأسلمة الإرهاب وأنه بضاعة إسلامية وأن المسلمين هم سبب الإرهاب في العالم .

٢- تلك الحملة المسعورة التي يشنها المثقفون الغربيون على الإسلام والمسلمين وذلك لاستعداء العالم عليه تحت زعم صراع الحضارات .كما فعل هنجنتون في كتابه " صدام الحضارات ، وفوكاياما في كتابه " نهاية التاريخ ".

وحديثاً وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر صدر عن الكاتب (كزافييه دي سي) الأمريكي الجنسية فرنسي الأصل . كتاباً بعنوان (مرافعة من أجل ولايات غربية متحدة) وهو كتاب يتلخص في دعوة الغرب (أوربا وأمريكا) إلى الاتحاد في دولة مركزية أحادية الرأس لمواجهة العدو الأخطبوطي العديم الرأس ولكن المتعدد الأذرع الذي هو الإسلام المنقسم إلى شتات من الدول سياسياً ولكنه متحد عصبياً وهو يرى أن هذه الحرب ضد الإسلام هو ركوب لمركب الشر في التعامل مع هذا العدو الشرس الشرير . ويرى الكاتب أيضاً أنه خير للغربيين أن تكون لهم أيد قذرة من أن لا تكون لهم أيد على الإطلاق[1] .

٣- ما يقوم به القادة الغرب من حملات دعائية بمناسبة وغير مناسبة من تأكيد على أن الإسلام هو العدو الرئيسي للغرب وللتقدم وأنه مناهض لكل حضلوة ومدنية .

ومن يطلع على كتاب (دمروا الإسلام وأبيدوا أهله) يتبين له صدق ذلك .

فالرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون يعلن بعد انهيار الشيوعية أن الإسلام هو العدو الوحيد للرأسمالية بعد انهيار الشيوعية .

ورئيس الوزراء الإيطالي (بير لسكوني) يعلن بعد بداية الحملة الظالمة على أفغانستان بان الإسلام عدو للمدنية وأنه لن يستطيع الصمود أما الحضارة

---

(١) جريدة الحياة . الأحد ٢٠٠٢/٦/٥م . صفحة ١٨

الغربية . والرئيس الأمريكي بوش الابن يعلن في بداية الحرب على ما يسمى بالإرهاب أنها حرب صليبية. ومن المعلوم أن الحروب الصليبية كانت على الإسلام والمسلمين .

هذا عدا ما يصرح به قادة الدولة الصهيونية ، وأيضاً فقد استغل رئيس وزراء الهند (فاجباي) الفرصة وأعلن أن المسلمين هم سبب الإرهاب في العالم .

٤- مع أنه من المعلوم أن كل ديانة سماوية أو غير سماوية تشتمل على طبقة معتدلة وطبقة متشددة . والإسلام كذلك من أتباعه من ينتهج طريقة التشدد والغلو وهم قلة. وأكثرهم معتدلون .

ومع ذلك فإن كل مسلم في نظر الغرب إنما هو أصولي متشدد إرهابي مع ان الواقع يقول غير ذلك .

أما الإرهاب المسيحي واليهودي وإرهاب السيخ الهندوس . وغير ذلك فلا نرى لذلك أثراً في الغرب .

٥- أننا ما سمعنا أن الغرب قد جهز قواته لتأديب اليهود الذين هم أشد الأمم إرهاباً وتطرفاً والذين تخلصت منهم أوروبا بسبب إرهابهم وتآمرهم ثم رموا المنطقة العربية والإسلامية بهم .

وما سمعنا أن أمريكا قد حشدت قواتها لتأديب المتطرفين الهندوس الذين يقتلون الأبرياء في الهند وكشمير .

حتى ما سمعنا أن أمريكا أعلنت حرباً عالمية على منظمات المافيا الإرهابية التي تنشر الرعب والفساد والمخدرات في أنحاء العالم .

٦- كل الأعمال الإجرامية والإرهابية التي قام بها غير المسلمين يُتكر لأصحابها اسماً يبتعد به عن دينه ، بل لا يكاد يذكر دين من يقوم بهذه الأعمال .

فالحرب العالمية الأولى والثانية لم يأت أحد على ذكر النصرانية مع كل الدمار والخراب الذي حل بالعالم جرَّاء هذه الحروب .

- وهتلر الألماني الذي قتل الملايين وشرد الملايين أطلق على إرهابه النازي دون ذكر الدين .

- وحتى تفجير مبنى أوكلاهوما في أمريكا . وقبل التحقيق ألصقت التهمة بالمسلمين وبعد التحقق تبين أن أحد الشباب الأمريكان الذي ينتمي إلى أحد الجماعات الأصولية المسيحية . لم ينطق أحد ببنت شفة بذكر دينه ولا مذهبه.

- أما حين يقوم أحدٌ من المسلمين بعمل ما إنتصافاً لمظلوم أو انتقاماً من ظالم فالإسلام حينها هو الإرهاب .

٧- من الدلائل التي تشير إلى أن الحرب على الإرهاب هي حرب على الإسلام أن المنظمات التي وضعت على قائمة الإرهاب جميعها إسلامية بما فيها المؤسسات الخيرية والدعوية وكذا المنظمات التي تقوم بالدفاع المشروع عن بلادها وعرضها.

٨- أن الدول التي تأوي الإرهاب والتي تسمى بالدول المارقة . ليس من بينها دولة غير إسلامية ، ومن هنا أعلن بوش مهدداً من لم يتحرك معنا ضد الإرهاب سنتحرك ضده[1].

(١) لقد اقحمت كوريا الشمالية ضمن محور الشر ذراً للرماد في العيون كما ذكر الشيخ يوسف القرضاوي.

٩- إن الحظر الاقتصادي والسياسي والعسكري . والتي تقوم به أمريكا والذي يخرج به دائماً قراراً دولياً لا يكون إلا على الدول الإسلامية . وما يشاع من أن دولاً غير إسلامية قام عليها حظرٌ اقتصادي فإنما هو ذر للعيون مثل كوبا ويوغسلافيا التي رفع الحظر عنها بعد أشهر من قرار الحظر أما العراق والسودان وليبيا وسوريا وإيران . فإن الحظر يطبق بحذافيره ومما يؤسف له أن الدول العربية والإسلامية أول من يطبق تلك القرارات.

١٠- أن الكيان الصهيوني قد ضرب بقرارات الأمم المتحدة عرض الحائط، منذ قيام هذا الكيان عام ١٩٤٨م.

والعجيب أن أمريكا وغيرها من دول الغرب لم تعلن حرباً على هذا الكيان لعدم تطبيقه لهذه القرارات.

والأعجب هو احتضان الإدارة الأمريكية لكل المواقف الصهيونية وانحيازها السافر والسافل للكيان الصهيوني واستخدامها حق (الفيتو) ضد أي قرار يدين هذا الكيان.

وثالثة الأسافي أن الكيان الصهيوني – وتحت حماية أمريكا – قد اضطر الأمم المتحدة لإلغاء قراراها والتي كان آخرها قرار إرسال محققين دوليين للتحقق في مذابح جينين . ثم ما كان من الأمين العام بكل وقاحة وجرأة يحسد عليها إلا أن يأمر بإلغاء القرار السابق .

١١- أن أمريكا ومعها الغرب يغضون الطرف عن كل المآسي والمذابح التي تحدث للمسلمين في أصقاع الأرض وبل تعتبر من يحاول مقاومة الاحتلال إرهابياً[١] وهذا ما حدث في فلسطين وكشمير والفلبين ، والشيشان أما تيمور الشرقية فلأن الانفصال سيكون عن دولة إسلامية فإن العالم الغربي بأكملـه يقف بجانبها حتى تنال الاستقلال.

١٢- هناك بيان أصدره ستون من أبرز المثقفين الأمريكيين يؤكدون فيه أن الحرب تمثل ضرورة أخلاقية ، وأن العدو الذي تخوض الولايات المتحدة الحرب ضده هو الإسلام الراديكالي الذي يهدد العالم اليوم .

وقد ضمت صفحات هذا البيان دفاعاً فلسفياً وأخلاقياً عن أي عدوان قادم على أي بقعة يسكنها هذا الإسلام . سواء كان في الفلبين أو العراق أو العراق أو إيران أو سوريا أو السودان . أو أي مكان كان فيه هذا الإسلام.

وقد ورد مؤخراً تصريحات لبعض ساسة الغرب يقول فيه إن الحرب سوف تكون على الدول التي تتبنى المنظومة السعودية حتى يعودوا إلى العلمانية كتركيا. إذاً الغرب يقيم الحرب على الإسلام . ليس الإسلام الشعائري ولكن ضد الإسلام الذي يصنع أمة الإسلام الذي يدافع ويقاوم . فالغرب يريدون إسلاماً مستأنساً لا فاعلاً ولا محركاً .

١٣- إن من أبرز الدلائل على أن هذه الحرب على الإسلام تلك الدعوات والتحذيرات الأمريكية للدول العربية والإسلامية بتعديل التعليم الديني بجد .

---

(١) على الرغم من أن الفلسطينيين يواجهون تحت سمع وبصر العالم الطائرات والدبابات والقاذفات الإسرائيلية والأمريكية الصنع إلا أنه عندما حاول الفلسطينيون الرد على ذلك اعتبرت أمريكا أن المقاومة عملاً إرهابياً وأعلنت مراراً أنها تتفهم حاجة إسرائيل في الدفاع عن نفسها.

كما حدث في المملكة العربية السعودية ، ومصر وأما اليمن فقد لبت النـــداء وأغلقت المدارس الدينية بها وذلك ضمن الحملة على الإرهاب، وكذا فعلت باكستان.

ونحن مع التطوير لكن بشرط أن يكون داخلياً وليس بإملاء أمريكي أو غربي .

ثم لماذا التعليم الديني في الإسلام ويغُض الطرف عن التعليم في الدولة العبريـــة على الرغم من النصوص الصريحة الواضحة التي تدعو إلى الإرهاب وتصنع المتطرفين .

ولماذا لا يدعو إلى تطوير التعليم الهندوسي الذي يطفح بالدعوة إلى الإرهـــاب وقتل الآخر .

ولقد أعلن توماس فريدمان أن أمريكا تحتاج إلى حرب داخل الإسلام وليـــس خارج الإسلام مشيراً إلى وجوب الثورة على التعليم الديني في العالم الإسلامي .

طالبت مجلة أمريكية متطرفة تسمى " ناشينونال ريفيو " وهي تعبر عن صـــوت الاتجاه السياسي المحافظ في أمريكا والذي يستمد صلب أفكـــاره مـــن الصهيونيـــة المتطرفة فيما يعرف بعقيدة المسيحية وعودة المسيح الدجال .

طالبت هذه الصحيفة بضرب مكة المكرمة بقنابل نووية .. وطـــالبت المجلـــة بتحذير كل من القاهرة ودمشق والجزائر وطرابلس والرياض من خطر الإبادة الفورية إذا تجرئوا وأظهروا أي علامة اعتراض، وأضاف رتيش لوري المحرر بالصحيفة أن مكة متطرفة بالطبع ومن ثم قد يموت بعض الناس ولكن ذلك يرسل إشارة إلى المسلمين بأن مدينتهم المقدسة يمكن أن تتحول إلى تلال من الحطام.

وهذا الكلام وإن كان داخلاً ضمن دائرة الخيال إلا أن يشير إلى نفسية مريضة مشحونة بالعداء للإسلام والمسلمين (وما تخفي صدورهم أكبر).

وهذه الحملة المسعورة على الإسلام والمسلمين قد إزداد سُعارها واشتد أوارها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م والذي تم فيها هدم برجي مركز التجارة العالمي ومبنى البنتاجون (وزارة الدفاع).

ولهذا سوف نفصل بعض الشيء الحديث حول تلك الأحداث. وهل هي فعلاً بتدبير من القاعدة التي يتزعمها أسامة بن لادن، أم هي أعمال إرهابية داخلية، أم بتدبير من الموساد الإسرائيلي. وقد أعلنت الاستخبارات الأمريكية فور وقوع الحادث أن أسامة بن لادن هو المتهم الأول في هذه التفجيرات. وقد نفاها أسامه بن لادن في أول تصريح عقب الحادث وإن بارك العمل بعد ذلك في عدة تصريحات.

لكن أمريكا قد اتخذت التدابير اللازمة وردت بضرب أفغانستان قبل أن يكون لديها دليل على تورط هؤلاء. مع أن الاستخبارات الأمريكية أعلنت أن ليدها ما يقرب من ربع مليون خيط حتى نصل إلى الحقيقية.

ونحن من جانبنا سوف نورد بعض الآراء حول هذا الحادث الذي اتخذه الغرب -وخاصة أمريكا- ذريعة لإظهار ما كان مكبوتاً وهو السيطرة على مقدرات أمة الإسلام.

والإعلان صراحة أن الإسلام دين إرهابي عدو للحضارة والتقدم والرقي. كما أعلن ذلك الساسة والقادة الغرب في مناسبات عدة.

وثائق جديدة عن أحداث سبتمبر

بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م انفردت مجلة المجتمع برؤية جديدة وموثقة على خلاف ما روجت الآلة الإعلامية الأمريكية والدولية عن أولئك الذين يقفون وراء تفجيرات نيويورك وواشنطن .

فقد كشفت المجتمع في عدد ١٤٧٥ الصادر في ٢٠٠١/١١/٣م عن قوى خفية دبرت ونفذت هذه التفجيرات ، واستندت في ذلك إلى شهود وشهادات موثقة من داخل الولايات المتحدة الأمريكية نفسها .

أولها : ليندون لاروش مرشح الرئاسة الأمريكية عن الحزب الديمقراطي عام ٢٠٠٤م والذي ألقى محاضرة في واشنطن في ٢٠٠١/٧/٢٤م أي قبل أحداث سبتمبر بـ ٤٨ يوماً حذر فيها من أن هناك قوى في الداخل تعد لإشعال حرب عالمية ثالثة، وأنها ستعلن أن هذه الحرب بين الغرب والإسلام . وسرد لاروش الأسباب والدوافع وراء ذلك، ثم كشف بعد التفجيرات عن أسرار جديدة تؤكد رؤيته .

ثانيها : نظام التحكم في الطائرات عن بعد JPLS والذي تم تطويره من خلال مجموعة شركات رايثون RAYTHEON وقد قام مكتب التحقيقات الفيدرالية باستجواب رئيس هذه المجموعة دانيال بورنهام ورئيس المهندسين المشرف على نظام JPLS حول إمكانية تورط هذا النظام في الأحداث .

ثالثها : كتاب BOD OF SECRETS الذي أصدره جيمس بامقورد وأثبت فيه بالوثائق إمكانية قيام قوى داخلية أمريكية بمثل هذه الأعمال ، ما دام ذلك في صالح الولايات المتحدة .

ولكن يتم في مثل هذه الأوضاع والفترات في العادة إشعال نار حروب عالميــة لقد تسبب الإنجليز في إشعال نار الحرب العالمية الأولى للحيلولة دون حدوث مثـــل هذه التحولات في آسيا فقاموا أولاً بإشعال النار في البلقان ثم في العالم بأسره وقـــام الألمان بإشعال نار الحرب العالمية الثانية بالدوافع نفسها والآن تريد القوى الموجودة في داخل الولايات المتحدة وفي إنجلترا (ومن ضمنهم برجنسكي) إشعال حـــرب عالميــة لعرقلة هذه التحولات الجديدة الجارية في آسيا .

إن شهر أغسطس أفضل وقت لإشعال مثل هذه الحرب ، وسيعلنون ان هـــذه الحرب حرب حرب بين الغرب و بين الإسلام علينا أن نمنع وقوع مثل هذه الحـــرب ولهذا علينا أن نوقف شارون في إسرائيل قبل كل شيء الحرب هي الهواية الوحيـــدة لهذا الشخص علينا أن نوقفه وان نؤمن السلام في الشرق الأوسط وان نحيي نظامنـــا ونتحول إلى النهضة بطريقة روزفلت .

إن عملية ١١ سبتمبر عملية مكياج صنعت في فترة تسود فيها أزمـــة ماليـــة ونقدية في العديد من الدول لم تقم بهذه العملية أي الولايات المتحدة أبداً يحتمـــل أن هناك أفراداً من بلدان أخرى تم استخدامهم فيها ولكن الذي قام بهذه العملية عبـــارة عن قوى موجودة في داخل الولايات المتحدة ، والهدف منها القيام بـــانقلاب إداري فيها ، وجر الولايات المتحدة إلى الحرب وهذه القوى مستعدة للقيام بعمليات أخـــرى للوصول إلى هدفها وستقوم بإثارة الجماهير لجر الحكومة ودفعها للحرب، علينـــا أن نوقف هذا .

عليكم ألا تصدقوا أبداً الأخبار الذي تذيعها قنـــوات CNN و FOX TV والقنوات المشابهة لهما .

إن تصديق ما تذيعه هذه القنوات لجر البلد إلى الحرب يعني أنك تكون آلـــة لتحقيق أهداف الذين قاموا بهذه العملية علينا ألا نفكر في التدخـــل في أفغانســـتان وعلينا إيقاف إسرائيل عند حدها لأنها تشكل خطراً على الولايات المتحدة الأمريكيـة وعلى غيرها من الدول .

وأن نؤسس السلام في الشرق الأوسط لأن التوتر الموجود في هذه المنطقة جزء من الحرب المخطط لها في أسيا .[1]

رابعاً : كتاب فرنسي جديد : صدر في باريس مؤخراً بعنوان (تزوير مروع) أو (الدجل الشنيع) للكاتب والباحث الفرنسي المعروف (تيري ميسان) قدم فيه رؤيـة متكاملة ، مفادها أن الدعاية الأمريكية المتداولة عن أحداث سبتمبر ليست صحيحـة وإنما تمت فبركتها بهدف التغطية على حدث أخطر هو ذلك الانقلاب الداخلي الـذي أحدثه عسكريون لدفع الرئيس لتغيير سياساته ، ويكشف المؤلف — في كتابه الـــذي حظي باهتمام كبير في الإعلام الفرنسي ونفذت طبعته الأولى خلال ساعتين فقط — أن مدبري الأحداث تمتعوا بدعم لوجستي قدمه فريق وجد علـــى الأرض واســـتخدموا لتوجيه الطائرات نحو أهدافها إشارات وقاموا بإعلام شاغلي الأبراج لتخفيف الضـــرر الإنساني إلى اكبر قدر[2].

يضيف : كل هذا حدث في ظل أعين الاســـتخبارات الأمريكيـــة المفتوحـــة واليقظة وبالتالي فأي عملية إذا تلك التي تدار انطلاقاً من مغارة في أفغانستان ويقـــوم بها حفنة من الإسلاميين ؟!

---

(١) لعل الكاتب يقصد إما الحرب في أفغانستان ، أو الحرب بين الجارتين النوويتين الباكستان والهند .

(٢) بعض التقارير تشير إلى أن أربعمائة يهودي كانوا يعملون في مبنى التجارة ولم يتواجدوا وقت الحادث .

وتعميقاً للتشكيك في الرواية الأمريكية يسوق الكاتب مزيداً من التساؤلات عن سر غياب الرئيس بوش طوال ذلك اليوم ، واضطراره للجوء إلى مقر القيادة الرئيسية العسكرية ، وإنزاله نائبه تشيني إلى ملجأ وزارة الدفاع .

ويجنح الكاتب إلى أن الدافع الذي حدا بالرئيس للجوء إلى القاعدة العسكرية في لويزيانا (باركسدال) ثم إلى القاعدة العسكرية في (نبراسكا) يكمن في أن منفذي العمليات استطاعوا وضع اليد على كافة المفاتيح السرية وكان بوسعهم القيام بتفجير نووي أو إعطاء أوامر عسكرية للجيوش .. لذا اضطر إلى الذهاب بنفسه ليضمن مسألة السيطرة الميدانية على الحدث.

ويلفت الكاتب الانتباه إلى أن هذه النقاط لم يتم التطرق إليها مثلها مثل الحريق الذي قيل إنه التهم جانباً من البيت الأبيض ثم تم التعتيم على ذلك تماماً .

ويواصل الكاتب طرح أسئلته المهمة : من أولئك الذين بوسعهم الحصول على أخطر أسرار الولايات المتحدة ؟ ويجيب : بالتأكيد فإن حفنة من الإرهابيين القادمين من الخارج ليست قادرة على اختراق أجهزة الأمن والدفاع الأمريكية إلى هذا المستوى !![1] .

خامساً : محققون أمريكيون يقلبون الرواية الأمريكية:

وتتوالى الحقائق التي تكشف تلفيق الرواية الأمريكية للأحداث، ومنها ما تم على أيدي محققين أمريكيين خاصين أشرفوا على التحقيق فيما جرى، من بينهم المحقق "جوفيالز" و"لورنس – ت ماي".

---

(١) صحيفة القبس الكويتية مقال تحت عنوان كتاب فرنسي : هجمات سبتمبر تصفيات حسابات أمريكية بتاريخ ٢١/٣/٢٠٠٢م .

وقد نشرت جريدة "القدس" الصادرة يوم الخميس ٢٠٠٢/٣/٢١م تحقيقـــا حول هذا الموضوع. ويكمل هذا التحقيق الصورة مضيفا معلومات جديدة وهذا هـــو نص التحقيق:

أكبر الفضائح والمؤامرات في أمريكا تم الكشف عنها بواسطة محققين خـــاصين فضيحة مونيكا لوينسكي..[١] كشفها محقق خاص، جريمة بناية أوكلاهوما[٢] كشـفها محقق خاص، مجزرة "كورروش" تم الكشف عنها بواسطة محقق خاص، مقتل الرئيـــس جون كنيدي ومثلها فضيحة ووترجيت التي أطاحت بالرئيس نيكسون تولى كشــفها أيضا محقق خاص وغير ذلك كثير.

واليوم يتولى محققون خاصون "جوفاليز" و"لورانس ماي" وغيرهمـــا كشــف ملابسات ما يسميانه فضيحة المؤامرة التي تجلت بالطائرات التي دمرت برجي مركـــز التجارة العالمية يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١م. ويقول هذان المحققان: إن اتمام إرهـــابيين عرب باختطاف الطائرات إنما هو جزء من المؤامرة المبيتة منذ وقت طويل ويفاجئـــان العالم بنشر كشوفات أسماء أطقم وركاب الطائرات المختطفة وليس بينها اسم واحـــد لعربي من الذين قيل إنهم الفاعلون. والمثل يقول "إن الأموات لا يتكلمون".

وواجهت الولايات المتحدة الأمريكية في السبعينيات أزمة متصاعدة تجلـــت في اختطاف طائرات تجارية للمطالبة بفدية تخدم أهدافا سياسية، إلا أن الإدارة الأمنيـــة قررت إحباط تلك العمليات وكلفت شركتين بالعمل مع وكالة نادرا ما يشار إليها في وسائل الإعلام تعرف باسم "وكالة مشاريع الدفاع المتقدمة" وذلك لوضع مخططـــات تتيح استعادة الطائرات المختطفة من دون إرادة المختطفين أو حتى قائد الطائرة نفسه.

---

(١) هي متدربة في البيت الأبيض اتهمت الرئيس الأمريكي كلينتون بالتحرش الجنسي بها .

(٢) مبنى تم تفجيره على يد أحد أعضاء جماعة متطرفة أمريكية.

والخطة في نقاطها الأساسية كانت تتيح المراقبة الأرضية لكل كلمة وهمسة تقال على متن الطائرات المختطفة ثم السيطرة عليها بالريموت كونترول وقيادتها لتهبط في المكان المقرر أن تهبط فيه من دون أن يستطيع أحد من الذين على متنها إطلاقاً التحكم بتلك الطائرة.

مشروع إلكتروني سري:

سرية المشروع وأهميته من حيث التخطيط المستقبلي اقتضت كلها ألا يعرف الطيار أو أحد من المسؤولين في شركة الطيران نفسها بوجود الأجهزة الإلكترونية الدقيقة وهي على أية حال ليست أجهزة ضخمة بل عبارة عن "سوفت وير" أي برنامج كومبيوتر يتولى السيطرة على الطيار الآلي ويتحكم به حسب ما يريد المراقبون على الأرض، بعد ثلاثين سنة تقريباً تم استخدام هذا الأسلوب بشكل واضح ودقيق في الطائرات التي قيل إنها اختطفت وقادها إرهابيون لتدمير برجي مبنى التجارة العالمية في نيويورك ومبنى البنتاجون حين أدخل في الخدمة الطيار الآلي الذي يستطيع أن يتحكم بالطائرة لتهبط بسلام وسط الضباب، أو لتحلق بين سفوح الجبال قابله الكثيرون بالتشكيك، ولكن تبين مع الوقت أنه فعال جداً، الأمر نفسه مع الأسلوب الجديد للتحكم إلتكرونياً بالطائرة.

يقول خبراء في الطيران إن الأمر كله عبارة عن التحكم بالطيار الآلي وتعطيله تماماً ليتم توجيه الطائرة إلكترونياً من الأرض، تماماً كما يتم توجيه طائرة التجسس بدون طيار.

المفاجأة في هذا الأسلوب ليست في التحكم الإلكتروني بالطائرة بواسطة الريموت كونترول بل في طريقة استخدامه في أحداث نيويورك وفي تراكم البراهين

التي تكشف استخدام هذا الأسلوب في عملية تدميرية لخدمة أهداف سياسية وعسكرية لم تتكشف بعد بكل أبعادها.

فكرة استخدامه للجريمة:

-ويقول المحقق الخاص (جوفيالز) إن علينا أن ندرك أولاً أن الغاية من هذا الاختراع لم تكن الاستغناء عن قائد الطائرة ، بل إحباط عملية الاختطاف .

وسرعان ما توالت العقول المتآمرة تحويل الفكرة واستخدامها بتحقيق غايات توصف بأنها لخدمة مافيا سياسية وعسكرية ومالية تدير دفة العالم وتتحكم بالسياسات العليا للدول وتعتبر نفسها (حكومة العالم) .

هناك في كل طائرة جهاز إلكتروني يعرف باسم المجيب ، وتكفي لمسة خفيفة ليرسل إشارة استغاثة تنبئ أن الطائرة مختطفة ويستخدم دوماً في الاتصال بالطائرات المختطفة .

بالنسبة لطائرات نيويورك عرف العالم أن أجهزة المجيب في الطائرات الأربع لم تتلق أية إشارة ولم تبعث أي إشارة تدل على وجود مشكلة .

(المحقق جوفيالز) يقول إن ذلك مستحيل إلا إذا أمكن التحكم بتلك الأجهزة وتعطيلها وكل التحقيقات تبين أن من قيل إنهم خطفوا الطائرات لا يمكن لأي منهم التوصل إلى هذه المرحلة ، ثم لا تفسير إطلاقاً لسكوت المجيب في الأربع طائرات وليس من المعقول أن يتم هذا من قبل خاطفين قيل إن سلاحهم سكاكين صغيرة .

وهناك نقطة أخرى : هل يعقل لأكثر من سبعين أو ثمانين راكباً يرون أنهم على وشك الهلاك ألا يوجد بينهم من يقاوم أو يحاول المقاومة أو يصرخ أو يستنجد أو حتى يستغيث ويسترحم ؟ لم تصدر عن أي من تلك الطائرات أية إشارات تدل على ذلك ، وهذا يخالف كل منطق!

أين الصندوق الأسود ؟

أين الصندوق الأسود في تلك الطائرات ؟ هل يعقل في تلك الظروف وما نسج حول وجود الخاطفين ألا يسجل في الصندوق الأسود كلمة واحدة تفوه بها أحدهم في غرفة القيادة ؟ مدة التسجيل في الصندوق الأسود ثلاثون دقيقة ، فهل يعقل أن تظل كل تلك المساحة الزمنية خالية تماماً ؟

ولقد استعاد المحققون الصندوق الأسود من الطائرة التي ضربت البنتاجون ومن تلك التي سقطت في بتسبورج فكان شريط التسجيل خالياً ونظيفاً ، فهل من تفسير سوى أن ما حدث كان اختطاف الطائرات بالريموت كنترول وأن الطيارين لم يستطيعوا فعل شيء وأنه تم إلكترونياً – بالريموت كنترول أيضاً – إطفاء كل الأجهزة التي يمكن أن تسجل وتدل على ما حدث؟

يتابع المحقق (جوفيالز) فيقول إن كل القوانين والأدلة تبين أن الطائرات اختطفت إلكترونياً بالريموت كنترول وتم توجيهها لتدمر البرجين ، وقد حملت أقوال بعض الشهود ساعة الحادث أن الطائرة التي ضربت البرج الثاني كانت تميل مبتعدة قليلاً لكنها تعود لتتجه نحو البرج ، وتفسير ذلك أن الطيار كان يحاول الابتعاد بها دون جدوى.

مسألة أخرى لا بد أن تسترعي اهتمام أي مراقب مدقق ، فبعد ٢٤ دقيقة فقط من تدمير البرج الثاني انطلقت تصريحات مسئولين في مكتب التحقيقات الفيدرالي أن الخاطفين عرب إرهابيون ! من يصدق ما قيل إن المحققين عثروا في سيارة أحدهم على دليل قيادة الطائرات باللغة العربية ثم هل هناك من يتعلم قيادة طائرة بوينج من كتاب على طريقة (تعلم اللغة الإنجليزية في ثلاثة أشهر)!؟.

مما لا شك فيه أن هناك أشخاصاً عرباً تعلموا الطيران في مدارس خاصة لأن مئات الآلاف من الشباب يتعلموا الطيران كهواية أو مغامرة ، ثم إن كل تقديرات الخبراء أنه لا يمكن لشخص يتعلم على طائرة تدريب صغيرة أن يقود طائرة بوينج بكل تعقيداتها الإلكترونية والميكانيكية .. ثم يقول الخبراء إن أي طيار تجاري يقود (إيرباص أو حتى بوينج ٧٢٧) لا يمكنه أن يقود تلك الطائرة الضخمة إلا إذا تدرب عليها بالذات، فأي من العرب الذين ذكرت أسماؤهم تدرب على تلك الطائرات؟![١]

وقد عرضت فضائية (المستقبل) يوم السبت ٢٠٠٢/٤/٦ في برنامج مشاهد مثيرة لقطة مصورة من أمريكا تم توزيعها على تلفازات العالم وهي تقدم دليلاً جديداً على أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر تم إعدادها وتنفيذها داخل أمريكا وبأيد أمريكية.

خلاصة المشهد المثير أن الخبراء في ولاية كاليفورنيا أرادوا تجربة نوع جديد من وقود الطائرات يكون أقل اشتعالاً عند وقوع حادث للطائرة مما يقلل الخسائر الناجمة عن الوقود القديم، وكي تكون النتائج واقعية اختاروا طائرة حقيقية من طراز (جامبو) وجعلوا جميع ركابها (دمى) بالحجم الطبيعي للإنسان على أن يتم التحكم في الطائرة – التي تخلو بالطبع من طيار – بنظام جديد هو التحكم الأرضي وكان من المقرر أن تهبط الطائرة على آلة تشبه السكاكين الضخمة تقوم بتمزيق السكاكين . المثير حقاً لا يكمن في حجم الانفجار وألسنة اللهب بل في المهارة الفائقة في نظام التحكم في الطائرة الجامبو وإنزالها بكل دقة جناحيها حيث نزل الطيار الآلي بزاوة ميل بالجناح الأيمن للطائرة .

---

(١) جريدة القدس، ٢٠٠٢/٣/٢١.

سادساً : قصص مفبركة روّجتها أجهزة المخابرات الأمريكية :

- القصص المفبركة سرعان ما تنهار وكمثال على ذلك ما قيل إن أحد الركـاب رجا كاهناً كان على متن الطائرة أن يتصل بزوجته ليبلغها أن الطائرة مختطفة ، فهل يعقل هذا؟ الرجل كان يحمل تليفونه النقال ، ومن المؤكد أنه يعرف رقـم تليفون زوجته أو أن الرقم مسجل في ذاكرة الجهاز ، فهل يعقل أن يطلب من آخر ، كاهناً أو غير كاهن أن يتصل بزوجته ليبلغها أنه مختطف ، بـــدل أن يحاول هو نفسه الاتصال بها ؟ زيادة على ذلك كل سجلات شركات التليفون لم تسجل انطلاق مخابرة واحدة من أي من تلك الطائرات فمن أين جـــاءت قصة الاتصال بالتليفون الخلوي!
- ما روى أن المخابرات عثرت على جواز سفر أحد الركـــاب العـــرب . وتم التعرف عليه .مع أن التحقيقات أشارت إلى الاحتراق الكامل للطائرتين وحتى الصندوق الأسود . فكيف بالله تتم قراءة بيانات لجواز سفر.
- ما قيل إنهم وجدوا بالمطار سيارة لأحد المختطفين وعثروا على صورة لأبـــن لادن وكتاب تعليم الطيران بالعربية ومصحف ولا أعتقد أن أناساً بهذه المهارة وهذه التكتيك – على فرض أنهم من العرب – يكونوا بهذه السذاجة ويضعوا صورة ابن لادن كما أنه لا يوجد على وجه الأرض كتاب لتعليـــم الطـــيران باللغة العربية.

محقق أمريكي آخر هو (لورنس – ت ماي) يقول إنه تولى بنفســـه مراجعـــة سجلات المسافرين الرسمية على الطائرات الأربع ، فلم يكن هناك أي اســـم لعـــربي واحد أو أي اسم يشتبه أنه لعربي[١].

---

(١) هذا ما أكده الدكتور / مصطفى محمود في مقال له في الأهرام عقب الحادث .

أما المحقق (جوفيالز) فيقول إن كل السـجلات الرسمية (كشوف أسماء المسافرين) اختفت بعد يومين من الحادث ، حتى شركات الطيران ادعت أن الكشوف ربما احترقت مع الطائرات فهل يعقل هذا ؟ ألا توجد كشوف في الإدارة وفي المكاتب وفي المطارات .

نعم لقد اختفت الكشوف بطريقة سرية غامضة!

أين هم أصحاب الأسماء العربية ؟

من يعرف مصير أصحاب الأسماء العربية التي نشرت وقيل إنهم مختطفون الطائرات؟ من أخفاهم أو من تخلص منهم وبأية طريقة ؟ مادام لا يوجد اسم أي منهم في قائمة أسماء الركاب لأي من الطائرات الأربع ، فأين هم وكيف اختفوا؟ ألا يستحق هذا السؤال أن يثار من قبل من يتصدون لكشف الحقيقة؟ جوفيالز نشر لوائح كاملة بأسماء الركاب وأطقم الطائرات الأربع وهو يقول إنه لا يوجد بينها واحد لعربي واحد ، ويتحدى السلطات الرسمية أن تنشر كشوفاً غير تلك التي ينشرها ، شرط أن تبين مصدر تلك اللوائح ؟ وشرط أن تخضع لتحقيق خبراء محايدين للتأكد من أن أصابع الاستخبارات والمافيا المتآمرة لم تعبث بها . هل يمكن دفن الحقيقة نهائياً؟

سابعاً : أسئلة بلا أجوبة !

يثير فريد مارشال تساؤلات محددة كما نقلت مجلة المجتمع ويقول إن البحث عن الحقيقة فيما يحدث يوم ١١ أيلول ٢٠٠١م يفترض إيجاد أجوبة سابقة وصحيحة مثل:

١- إن كان صحيحاً أن سبع مخابرات بالتليفون الخلوي قد صدرت عن إحدى الطائرات المختطفة فهل يعقل أن أحداً لم يشر ولو بكلمة أو همسة لوجود أربعة خاطفين ؟

٢- ما التفسير الذي يمكن أن يطلع به البعض حين نعرف يقيناً أنه لا يوجد اسم عربي واحد في كشوف الركاب للطائرات الأربع المختطفة ؟ وعلى أي أسس وجهت التهمة عبر وسائل الإعلام إلى إرهابيين عرب بعد دقائق قليلة من وقوع الحادث ، أليس من المنطق والعدل أن نسأل عن مصير أصحاب تلك الأسماء التي ذكر أنها اختطفت الطائرات؟

٣- كان واضحاً أن الطائرات المختطفة قد اختطفت إلكترونياً بالريموت كنترول من الأرض ولم يكن أحد ممن على متنها قادراً على التحكم بها.

٤- كل الخبراء يقولون إنه لا يمكن تدمير البرجين بالكامل ، وبهذا القدر من الدقة دون وجود متفجرات مزروعة مسبقاً في مواقع استراتيجية داخل البرجين وقد تم توقيت تفجيرها بعناية بالغة .

٥- لا يمكن لارتطام الطائرة بالبرج من الناحية الهندسية أن يدمر المبنى بالشكل الذي حصل.

٦- كيف يمكن تبرير إلزام التخلص من أنقاض البرجين بعد أقل من ٢٤ ساعة من الحادث وقد رسا العطاء على الشركة نفسها التي تعهدت بالتخلص من أنقاض مبنى (مورا) في مدينة اوكلاهوما؟ ويتضمن التعهد الإسراع في صهر الفولاذ وإعادة تدويره دون إجراء أي تحقيق أو بحث .

ثامناً : في مقال له في جريدة الوطن السعودية بتاريخ ١٤٢٢/١٢/٢٣هـ الموافق في ٢٠٠٢/٣/٧ ذكر المفكر الفرنسي المسلم روجيه جارودي أن أحداث الحادي عشر

من سبتمبر هي مؤامرة أمريكية وحرصاً منا على بيان الحقيقة كاملة بإزاء هذا الموضوع لأنه يمثل نقطة تحول واضح وصريح في مجال الصراع الحضاري تجاه الإسلام سنورد المقال كاملاً حيث يقول جارودي:

من الغريب أن يسرد البيت الأبيض على العالم روايته الرسمية حول الحدث ، فور وقوع الحادث ففي اليوم التالي تم إعلان أن أبن لادن ، ومجموعة من الطيارين الانتحاريين ليسوا فقط من الأفغان ، بل من بعض الدول الإسلامية أيضاً قد قرروا حرباً ضد أمريكا ، ولتحقيق هدفهم قاموا باختطاف أربع طائرات مدنية وانطلقوا بها تجاه التوأمين (رمز الاقتصاد الأمريكي) والبنتاجون الرمز العسكري لأمريكا. وأخذت الولايات المتحدة تردد وتحاول ضبط هذه الرواية ، وحبك تفاصيلها بقدر الإمكان ، غير أن هذه الرواية تحمل تناقضاتها في داخل كل تفصيلة خاصة بها .

لماذا نجد هذه الرواية هشة وغير منطقية .. ؟

لدينا شهادة ومناقشة لأكثر من ٢٠٠ طيار مدني وحربي أمريكي ، الذين التقوا في حلقة مناقشة حول الحادث ، وأكدوا من خلال تلك المناقشات أن هذه الرواية غير ثابتة لأسباب عديدة.

١ - العثور على أدلة في أماكن سقوط الطائرات ، مثل وجود بعض الكتيبات للطيران باللغة العربية ، ومصاحف وأيضاً جوازات سفر عربية ، وهو شيء لا يمكن حدوثه أو تصديقه حيث إن انفجار بمثل هذه القوة لا يبقي على بعض الأوراق والمصاحف وجوازات السفر سليمة وواضحة بالدرجة التي تمكن من قراءة اللغة المكتوبة بها أو تفسيرها .

٢ - أجمع الجميع على أن عملية بهذه الدرجة من البراعة والدقة لا يقوم بها إلا طيارون على مستوى عال جداً من الكفاءة والخبرة ، مما يتنافى تماماً مع وجود

كتيبات تعليم الطيران في سيارات قريبة من منطقة سقوط الطائرات ، ومـــاذا ستفيد هذه الكتيبات لشخص يقود الطائرة بسرعة تقترب من ألف كيلو متر في الساعة ، وعلى هذا الارتفاع ويريد التصويب نحو هدف بعينــــه ، هـــذه العملية كانت بحاجة إلى كفاءة عالية جداً لا تفيد معها أشـــرطة الفيديـــو أو كتيبات تعليم الطيران .

٣ – أهم النقاط التي تدحض الرواية الأمريكية هي أنه لابد أن يعرف الجميـــع أن الرموز السرية للطيران فوق هذه المناطق التي اتخذت كأهداف ، لا يعرفها إلا مجموعة صغيرة جداً من البشر ، لأنه يتم تغيير هذه الرموز بصفة مستمرة عـــن طريق جهاز المخابرات المركزية الأمريكية .

٤ – صعوبة بل استحالة الهروب من كل خطوط الأمن ، لا سيما حينمـــا نعـــرف بوجود فرقة من الطائرات المقاتلة في حالة استنفسار كامل ودائـــم للإقـــلاع لاعتراض أية طائرة تحلق فوق منطقة كولومبيا ، فلمـــاذا لم يتلقـــوا أي أمـــر للتحرك ؟ . خصوصاً أننا يمكننا القول ؟ إن كل متر مربع من منطقة ســـقوط الطائرات مؤمن بالأمن العسكري وجهاز المخابرات المركزية ، وعلى الرغـــم من ذلك لم يحدث شيء، وهو الأمر الذي لا يمكن لأية مجموعة انتحاريـــة أن تتنبأ به .

٥ – وهذه نقطة حاسمة، الأمريكان منشغلون دائماً بموضوع اختطاف الطـائرات، لذلك ابتكروا نظاماً يسمح بقطع جميع الدوائر الإلكترونية للطائرة المختطفـــة وهي في الجو عن طريق جهاز تحكم ويمكن من فرض خط معين على الطـــائرة المختطفة ، وهذه العملية تتم من القاعدة الأرضية أو عن طريـــق طـــائرات "

الأواكس " . لهذه الأسباب يمكننا توقع أن مقاعد الطيارين كانت خالية تماماً وقت انفجار الطائرات .

إلى هنا لابد وأن نجد أنفسنا أمام سؤال واحد .. من صاحب المصلحة في كل ذلك ، هل هو ابن لادن وجماعته ؟.

للإقتراب من الحقيقة علينا أن نعرف: المشاكل الرئيسية التي كانت تواجه إدارة بوش إبان تلك الفترة:

١ - ازدياد حجم المديونية بطريقة ضخمة جداً.

٢ - وجود عجز كبير في الميزان التجاري ، وتزايد إفلاس الشركات الكبرى، والأهم من ذلك التسريح الجماعي للعمال.

لذلك تمثل أحداث الحادي عشر من سبتمبر الورقة الرابحة للمتآمرين فيها ، خاصة وأن منع تدخل الأمن لا يأتي من أي مسؤول عادي المستوى ، بل من مسؤولين كبار جداً وقريبين من الإدارة الأمريكية مباشرة .

٣ - على المستوى السياسي أصبحت الولايات المتحدة منعزلة أكثر فأكثر ، بسبب سياسة العولمة ، ابتداء من (سياتل) - المؤتمر الاقتصادي للعولمة - عندما يتحد فلاح فرنسي مع مزارعين أمريكيين ، بحضور النقابات الأمريكية ، حيث حضر ما يقرب من ٣٠٠٠ نقابي أمريكي للاحتجاج على سياسات العولمة ، على الرغم من أن هذه النقابات هي ذاتها التي تضامنت مع الحومة الأمريكية في حرب فيتنام، ونهاية بمدينة جنوى في إيطاليا عندما تجمعت الجموع للاحتجاج .

والأهم من كل هذا هو مؤتمر " دربان " في جنوب إفريقيا، حيث تمت إدانة الدولة العبرية وسلوكها العنصري، مذكرين بقرارات الأمم المتحدة التي تدين

إسرائيل ، ولأن جنوب أفريقيا عانت الكثير من التفرقة العنصرية، فقد كـان ذلـك التدخل الإفريقي الهائل سبباً في الذعر الكبير الذي أصاب المؤتمرين، لاسـيما بعـد انسحاب أمريكا وإسرائيل ، خاف الجميع نجاح تلك الحركة المؤثرة داخل المؤتمـر ، وامتد هجوم الإفريقيين ليس إلى أمريكا فقط بل إلى الدول الاستعمارية القديمة عندمـا أعلنوا أن الجرائم ضد الإنسانية غير قابلة للتقادم ، وبالتالي فجريمة العبودية غير قابلـة للتقادم وطالبوا بالتعويضات.

ساد هذا المناخ السياسي الولايات المتحدة الأمريكية قبل أحـداث سـبتمبر، إضافة إلى الشعور العام لدى المواطنين العرب والمسلمين في العالم، بالعداء لسياسـات أمريكا المنحازة للدولة العبرية .

كيف قام المتآمرون بعملية الحادي عشر من سبتمبر؟

لقد تم توجيه الطائرات الأربع بأجهزة تحكم دون أدنى شك ، لكن المشـكلة هي كيف تتم العملية وإظهارها في الوقت ذاته بفعل فاعل ؟ . بمعنى آخر كيف تشـير أصابع الاتهام إلى العرب والمسلمين دون غيرهم؟ .

الأمر في غاية البساطة ، فجهاز المخابرات المركزية الأمريكية قام بالتعاون مـع العديد من الجماعات الإسلامية المتطرفة أثناء الوجود السوفييتي في أفغانستان ، بل إن بعضهم هو صناعة أمريكية بحتة، بعد الانتهاء من الاتحاد السوفييتي، لم يكـن صعبـاً على أجهزة المخابرات نفسها بأساليبهم المختلفة إقناع هذه الجماعات أن عـدو الله الجديد الآن هو الولايات المتحدة الأمريكية ، أصبحت الشعارات المعلنة هي العـداء لأمريكا، وصار في داخل هذه الجماعات رجال مستعدون للتضحية بحياتهم في سـبيل الله، وهم معروفون بالاسم للأمريكان ، تلك الأسماء التي كتبت في التقارير ونتـائج التحريات والتحقيقات ، هذه المعرفة التي سهلت تلفيق الأدلة المزعومة ، لم يكن هناك

أية فائدة من الطلب من هؤلاء الرجال اختطاف طائرات وتفجيرها ، فقط سجلت أسماؤهم في تقارير الطيارين المزعومة أيضاً قبل إقلاع الطائرات، وتم توجيه الطائرات آلياً ، ومن الطبيعي والبديهي أن توجد جثث لأشخاص عرب على الطائرات الأمريكية ، تم إلصاق الأسماء المعدة سلفاً إلى جثثهم .

إذن المال والمصالح الطويلة الأجل هما المتآمران الحقيقيان لأحداث سبتمبر.

هدف العملية : (١)

ساذج من يظن أن هذه العملية تم التخطيط لها فجأة ، أو على مدار عام أو اكثر قليلاً هذه العملية مخطط لها منذ زمن وتتسق نتائجها تماماً مع استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنوات ، ومن أبرز نتائج هذه العملية على المدى **القصير والطويل:**

١ - حل المشاكل الداخلية والتي تظهر عجز إدارة بوش عن حلها وذلك عن طريق شن حرب تتجاوز حدود أفغانستان.

ولنا أن نستعيد التاريخ ونتذكر أنه بعد الحرب العالمية الثانية ، والفزعة الاقتصادية ثم حالة الركود ، هنا كانت الحرب الكورية ، وهذا هو ما أحدث بالفعل انتعاشة اقتصادية ، ثم ركود تام .

٢ - تمثل أفغانستان فرصة رائعة للسيطرة على منابع بترول الجمهوريات السوفييتية السابقة ، ولأن هناك كثيراً من المتنافسين وجب على أمريكا في الوقت المناسب وضع أقدامها في المنطقة .

---

(١) جريدة الوطن ، ١٤٢٢/١٢/٢٣هـ.

٣ - الصراع مع الصين قادم لا ريب فيه من وجهة نظر أمريكا ، لذلـــك وجـــب وضع قواعد عسكرية أمريكية في هذه المنطقة تحديداً ، اســتعداد للســنوات القادمة والمواجهة مع الصين.

٤ - التحكم في منطقة آسيا الوسطى يتيح التحكم في عدد هائل من المسلمين .

من هنا يأتي سيناريو (هنتجنتون) عن "صدام الحضارات" والذي يــبرر هــذه الحرب.

ومما يؤكد أن الإعداد لهذه العملية مخطط له منذ سنوات، أنه بعد التحكـــم في مصادر البترول، لابد أمن إقامة أنابيب بترول تمر عبر الخليج العربي ، ثم كل أوروبـــا بما في ذلك كوسوفو.

لقد ذكرها كلينتون بصراحة ووضوح عندما قال : نحن بحاجة للمرور بأنابيب البترول عبر أوروبا وكوسوفو ، إذن مشكلة كوسوفو لم يكن لها علاقة بالدفاع عـــن الأقلية المسلمة .

لقد نجح صقور إدارة بوش في تنفيذ مخطط أمريكا الأكبر لهذا القرن .

وهؤلاء الصقور وفي مقدمتهم وزير الدفاع (رامسفيلد) بكل ما هو معــروف عنهم من تشدد ، هم التفسير على التساؤلات التي تناثرت بعد أحداث سبتمبر حـول غياب أربعمائة يهودي عن عملهم في البرجين يوم الحادث ، المضاربات التي حدثت في البورصة من قبل اليهود ، بيع الشركات الكبرى اليهودية قبل انهيار البرجين مباشرة ، تغيير موعد زيارة شارون إلى أمريكا في ذلك الوقت ، ففني عن الذكـــر أن أغلبيـــة هؤلاء الصقور يهود وعلى صلة أكثر من وطيدة ومنحازة للدولة العبرية.

في النهاية بشكل أو بآخر استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية إجبار جميـــع الدول في العالم على الاعتراف بحربها ضد الإرهاب ، لأن الكارثة المســـرحية الـــتي

أبدعت في إخراجها على الملأ كانت كبيرة ومفجعة لكنها مع كل ذلك فشلت في تدبير وتلفيق أدلة تقنع بها الجميع[1].

ونحن في هذا المقام وإن أسهبنا في سرد الأحداث لسنا في شك من أن هذه الحرب التي يطلق عليها الغرب بقيادة أمريكا - حرب على الإرهاب هي حرب على الإسلام بكل المقاييس وليس أدل على ذلك من أن قضية تعديل المناهج الدينية قد أثيرت بعد الأحداث بصورة تدعو للدهشة مما يدل على أن الإسلام هو المستهدف.

ولهذا صرح أحد الساسة الغربيين بأن الحرب على الإرهاب لابد وأن تشمل المناهج والمساجد.

ومن هذا ندرك أن الحرب على الإرهاب ما هي إلا حلقة في سلسلة التعامل الخشن من جانب الغرب للحضارة الإسلامية. ولن تكون الأخيرة طالما ظلت العقلية الغربية بمنأً عن تفهم رسالة الإسلام السمحة وقيمة الحضارية.

---

(١) جريدة الوطن، ١٤٢٢/١٢/٢٣هـ.

الفصل الثاني
الحوار الحضاري في الإسلام وأساليبه

١ - الإسلام دين حضاري

في مقابل نموذج صراع الحضارات الذي تبناه الغرب هناك نموذج حوار الثقافات أو الحضارات الذي تبناه الشرق القديم حتى ظهور الحضارة العربية الإسلامية. وهو نموذج يقوم على الأخذ والعطاء على مستوى الندية بين الطرفين.

وقد تأكد هذا النموذج وبلغ ذُروته في الحضارة العربية الإسلامية فقد نزل الوحي بلسان عربي مبين مؤكداً البلاغة العربية ومتجاوزاً الشعر العربي وأساليب بيانه، ومعطياً أعجازاً أدبياً بطريقة العرب ولم يقض الوحي على الثقافات الموجودة في شبه الجزيرة العربية، اليهودية والنصرانية والحنيفية والوثنية بل حاورها ووصف تطورها التاريخي ومذاهبها وانحراف بعضها عن الأصول الأولى وأكدَّ بعض القيم العربية القديمة مثل نجدة الغريب والشجاعة والكرم والصدق في القول. وفي نفس الوقت غيرَّ قيماً أخرى وعادات جاهلية. مثل وأد البنات وعلاقة الرجل بالمرأة والتمايز بين العبيد والأشراف.

لقد بزغ فجر الإسلام وفي العالم حضارات وثقافات شتى. أهمها اليونانية والفارسية والرومانية.

وأما الحضارة اليونانية فقد امتدت رأسياً وأفقياً لكي تغطي مساحة ضخمة من الزمان والمكان مع تنوع المجالات التي أبدعت فيها، فمن نماذج أدبية أسطورية رفيعة كالإلياذة والأودسة إلى محاولات التنظير في مجال السياسة والأخلاق، وعرف العالم هيموروس، وسقراط وأفلاطون وأبقراط، وجالينوس وأقليدس، وغير هؤلاء من أعلام، لا يستطيع منصف أن ينكر دور كل منهم في إثراء الحضارة الإنسانية.

كما أننا نؤكد على أنه لا مجال للمقارنة بين حضارة كهذه وبين نتاج حضاري عربي في نفس الوقت الذي توهج فيه بريق تلك الحضارة اليونانية لكي يجذب به إليه كل المتطلعين للمعرفة الفلسفية والعلمية.

فلقد كانت العرب في الجزيرة ذلك الوقت بحكم النظام القبلي الذي ساد في وسط الجزيرة العربية لا تعرف إلا النذر القليل من التيارات الحضارية، حيث أن السمة الغالبة على سكان هذه المنطقة هو الاهتمام بالشعر والنثر والحكمة المتناثرة في الأقوال وبعض الخبرات العملية التي اكتسبوها بحكم الظروف البيئية والاقتصادية، إلا أن أطراف الجزيرة العربية الجنوبية والشمالية والشرقية شهدت مظاهر حضارية أكثر استنارة ذلك بفعل الجاليات الهندية والفارسية، وبحكم حركة الحوار والجدل بين أصحاب الديانات السماوية والوضعية يقول ولز: "فقد كان الذهن العربي قبل محمد صلى الله عليه وسلم ببضعة أجيال متقداً بنار تسري تحت الرماد، فكان ينتج الشعر والشيء الكثير من الجدل الديني[1].

وجاء الإسلام يبعث هذه الأمة بعثاً جديداً، وتنطلق النار من تحت الرماد، لتتوقد العقول محلقة في آفاق هذا الكون الواسع الرحيب، لتكشف الغموض الذي يلفه وتتعرف على أسراره، ذلك أن الإسلام خاطب العقل ودعاه إلى التأمل والنظر ولا أدل على ذلك من أن معجزة الإسلام جاءت على غير مثال سابق، معجزة فكرية، فالقرآن يضع الإطار النظري للمعتقد الديني الصحيح ويحدد الملامح الرئيسية للموقف الملتزم للمسلم اعتباراً بسنن الكون والحياة.

وتأتي معالجة الوحي المنزل لطرائق المعرفة وأدواتها معالجة محكمة ودقيقة، والمتتبع لآيات القرآن من خلال التحليل القائم على ما نزل من الوحي، قوله تعالى:

---

(١) بحوث ودراسات فلسفية. د. سعيد مراد ، ص ٦١.

اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علـــم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم [(١)]" ربط بين القراءة كوسيلة من وسائل "علم الإنسان ما لم يعلم" وهذا يعني أن الإنسان في مسيرته العلمية يبحث عن المجهول الذي لم يصـل إليه بعد، وينتقل بنا الوحي نقلة أخرى حيث يقول: "ن والقلم وما يسطرون[(٢)]" وهنا تأتي بالخبرة البشرية عبر العصور والمراحل الحضارية، وإذا كان مجرد تعلم الكتابة غـير كاف لتحقيق ذلك الهدف، فإن القرآن الكريم يحرص على أن يمتلك الإنسان ناصيـة الفصاحة والبيان حتى يحسن عرض أفكاره، فيقول المولى في موضع آخر: "الرحمـــن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان[(٣)]".

وتتواصل المنطلقات تواصلاً يصل بنا إلى الدعوة على الحرص في الاستزادة من العلم: "وقل رب زدني علماً"[(٤)]

وحتى لا يغتر الإنسان بعلمه فيضل به عن سبيل الله أو يتوقف عـــن التـأمل والنظر قال المولى عز وجل: "وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً[(٥)]"

لكن كيف يتزود الإنسان من العلم؟ لا يتحقق ذلك إلا من خـــلال التـأمل والنظر والتدبر والتفكير والتفقه، والدائرة التي على الإنسان أن يتأمل فيها تبدأ ضيقة محدودة ثم تزداد اتساعاً لتشمل كل عناصر الحياة، وعلى نحو يشمل القريب والبعيـد والغامض والأشد غموضاً، والطبيعي والبشري[(٦)].

---

(١) العلق : ١-٥ ويقال إن هذه الآيات أول ما نزل من القرآن.

(٢) القلم : ١ وسورة القلم هي ثاني سورة من حيث النـزول.

(٣) الرحمن : ١-٤.

(٤) طه : ١١٣.

(٥) الإسراء : ٨٥.

(٦) المصدر نفسه صـ ٦٣.

يبدأ الإنسان بنفسه﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[١] ثم في طعامه الـــذي هـــو ألصق الأشياء لحياته ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء﴾ [٢] ثم ينتقل بهـــم إلى مجال أشد اتساعاً وأكثر تنوعاً ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ ﴿ أو لم ينظـروا في ملكوت السموات والأرض﴾[٣] ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيـــف بنيناهـــا وزيناها وما لها من فروج،والأرض مددناه والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها مـــن كـــل زوج بهيج﴾ والمقصود بالنظر في كل هذه الآيات الحس المدرك للألـــوان والأشـــكال والتأمل العقلي في نفس الوقت، وهنا يربط الوحي بين مصدرين من مصادر المعرفـــة الحواس والعقل، ﴿ ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين﴾[٤]

ولم تتوقف دعوى الإسلام عند هذا الحد بل استخدم كل الألفاظ الدالة علـــى التـــأمل والتدبر والتعقل والتفكير والتفقه، ونحن لا نستطيع أن نحصر هـــذه المعـــاني حصراً وإنما نقدم منها نماذج للتدليل على عناية الإسلام بالإنسان العاقل ثم الإنســـان المؤمن يقول تعالى: ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون﴾ [٥]

ويقول: ﴿ قد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾[٦]

ثم يربط بين الآيات الكونية والعقل: ﴿ لقد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾[٧]

ثم ربط بين العقل والعلم فيقول: ﴿ وتلك الأمثال نضربها للنـــاس ومـــا يعقلـــها إلا

---

(١) الذاريات : ٢٠.
(٢) عبس : ٢٤.
(٣) الأعراف : ٧.
(٤) البلد ١٠:٨.
(٥) يوسف : ٢.
(٦) المؤمنون: ٨٠.
(٧) الحديد : ١٧.

العالمون﴾[١] وقد استخدم للدلالة على التأمل والاعتبار والفهم لفظ "تدبر" ﴿ أفـــلا يتدبرون القرآن﴾[٢] وقوله: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [٣].

وقوله ﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾ [٤].

ثم يستخدم لفظ التفكير، فيقول: ﴿ كذلك يبين الله لكـــم الآيـــات لعلكـــم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ [٥]وقوله: ﴿ وتلك الأمثـــال نضربهـــا للنـــاس لعلـــهم يتفكرون﴾ [٦]

ثم لفظ التفقه من مثل قوله ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقـــهوا في الدين﴾ [٧].

على هذا القدر من التنوع في استخدام أساليب الخطاب وفي استخدام الألفاظ الدالة على كل أشكال التأمل والنظر تصبح أبواب الطعن مغلقة أمام من يدعـــي أن الإسلام قيد حركة الفكر بل على العكس تماماً، فالنصوص بكل ما تحتمل من دلالات صريحة لتشهد بحرص الإسلام على إعمال العقل في كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر.

ثم إن القرآن الكريم ذاته يمكن الاستفادة منه باستخدام منهجان أو مســـتويان للفهم، مستوى المدلول الظاهر الذي يستطيع أن يفهمه كل من يقرأ القرآن ومستوى المدلول الآخر العميق الذي لا يناله إلا من تفكر فيه وتدبرن هل هناك رحابة في الفكر

(١) العنكبوت : ٤٣.
(٢) النساء: ٨٢.
(٣) محمد : ٤٢.
(٤) المؤمنون : ٦٨.
[٥] البقرة : ٢١٩.
[٦] الحشر : ٢١.
[٧] التوبة: ١٣٢.

تسع كل المستويات الإنسانية على هذا القدر من الاتساع، هذا يدفعنا إلى القول أن مثل هذا الدين لا يمكن أن يغلق أبواب الانفتاح على الثقافات الأخرى، إذ أن الانغلاق واحد من القيود التي تكبل حركة العقل وذلك يتعارض مع دعوة الإسلام الصحيحة.

ثم إن عالمية الإسلام ومسئولية المسلمين عن تبليغ رسالته إلى كافة الأمم والشعوب، لن تتأتى إلا بالانطلاق والانتشار في الأرض والتصدي بالحوار المستنير والجدل الحسن إلى أصحاب المعتقدات والأفكار الأخرى، وقد فتح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الباب عندما أرسل برسائله إلى الأمراء والحكام، ثم أرسل بها أصحابه مزودين بملكات عقلية إيمانية خاصة تؤهلهم إلى هذه المهام، ومع هذه البداية تتسع دائرة الاتصال والتواصل وتبلغ ذروتها في بداية عصر الدولة الأموية.

وقد كانت البدايات الأولى لحركة الترجمة في ذلك العصر، يقول ابن النديم: "كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه وله همة ومحبة للعلوم، وقد قام بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان يترل مدينة مصر، وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة، ثم نقل الديوان وكان بالفارسية إلى العربية في أيام الحجاج[1].

تلك كانت البداية التي أعقبتها محاولات عديدة جادة ونشطة للترجمة من لغات شتى إلى اللغة العربية، ويقول ابن جلجل: "ماسرجويه كان يهودي المذهب سريانياً، وهو تولى في الدولة المروانية تفسير كتاب أهرن بن أعين القس إلى العربية تلك بداية مبكرة تتسم بالطابع الفردي، ثم حدث في آخر عهد بني أمية وأول عهد آل عباس من البدع في الدين واختلاف المذاهب في الحكمة، وكثرة المناظرة مع غير المسلمين مما

(١) الفهرست، ص ٣٣٨.

أحوج كل فريق إلى التغلغل في العلوم واستنباط مصادرها للتعاون والتمانع واشتدت العناية بذلك، والحرص عليه، فما كشفوا على ذلك كانوا كالعطشان يصل إلى الماء، فدخل الناس أفواجاً في العلوم اليونانية وتكاثر طالبوها فازدادت رغبتهم ونفقت أسواقها، بقدر ما تبحروا فيها، كما هو الشأن في العلم، إن الجاهل لا يرى له قدراً، والعالم يزداد فيه شوقاً بقدر ما ينال من درجة، وزاد على ذلك تنافس الخلفاء والأعيان في تحريض الناس على ذلك وبذل الأموال لمن يتعاطاها، وأصبح الاهتمام بالترجمة ذا طابع جماعي لا تتأثر بموت أحد ذلك أن الدافع لها دافع حضاري أصيل فالمسلمون في العصر العباسي قد أوغلوا في الحضارة وهي تستند إلى العلم، فالتمسوه عند أهله من أصحاب الحضارات، وإذا كانت هناك بعض الاعتراضات في ذلك الوقت على نقل التراث الدخيل، فإن متطلبات العصر قد فرضت نفسها فرضاً لا يقوم على منطق التسلط والتشدد، وإنما يستند إلى مبررات عقلية منطقية مقبولة حيث أن احتكاك العرب بغيرهم من الأمم أطلعهم على ثقافات جديدة، كان عليهم أن يقفوا منها موقف الناقد البصير لا موقف المتفرج، ولا يتيسر ذلك إلا بالوقوف على أسرار هذه الثقافات. أضف إلى ذلك الحاجة إلى العلم ودعوة القرآن وحثه على التفكير وطب العلم[1].

الحضارة الإسلامية في شهادات الغربيين :

يقول (روجيه دي باسكيه) في كتابه اكتشاف الإسلام وهو يعقد مقارنة بين حضارة الإسلام والحضارة الغربية الحديثة.

من المسلم به حالياً وبوجه عام أنه بينما تتراجع الديانات الكبرى أو على الأقل تتخذ موقف الدفاع، فإن الإسلام ذاته في تقدم.

(١) سعيد مراد في كتاب دراسات فلسفية ، ص٦٥.

إن قوة الإسلام هذه مقارنة بضعف المسيحية تمثل حقيقة كبرى في التاريخ المعاصر، ولقد قامت عدة دراسات اجتماعية واستشراقية بمحاولة لتفسير ذلك، فأظهرت أن هناك وجهات نظر عديدة.

لقد جاء الإسلام إلى الناس لمساعدتهم على عبور هذه المرحلة الأخيرة من التاريخ العالمي دون أن يتعرضوا للضياع، وباعتباره الوحي الأخير في سلسلة النبوات، فإنه يقدم وسائل لمقاومة الفوضى التي تسود العالم حالياً، وإقرار النظام والنقاء في داخل الإنسان وإيجاد التآلف والانسجام في العلاقات الإنسانية، وتحقيق الهدف الأسمى الذي من أجله دعانا الخالق إلى هذه الحياة، إن الإسلام يخاطب الإنسان الذي يعرفه معرفة عميقة ودقيقة محدداً بالضبط وضعه بين المخلوقات وموقفه أمام الله[١].

ويقول (برنارد لويس) لقد كان الإسلام تأسيساً لدين جديد، وإمبراطورية جديدة، وحضارة جديدة. لقد قامت حضارة أصيلة مستوحاة من العقيدة الإسلامية، ومتمتعة بحماية الدولة الإسلامية، ومدعمة بثراء اللغة العربية، حضارة تنمو وتتسع وتعيش طويلاً وقد صنعها الرجال والنساء، من مختلف الأعراق والديانات، وقد اصطبغ كل شيء فيها بالعروبة والمبادئ الإسلامية.

ويقول (إدوارد مونتيه) إن الإسلام في جوهره دين عقلاني وفق أوسع المعاني لهذا المصطلح.

ويقول (مارسيل بوازار) في كتابه الجوانب الإنسانية في الإسلام[٢].

---

(١) R.du pasquier : Decqurerte del'Aslam (5.11).

وروجيه دي باسكيه. كاتب وصحفي سويسري درس الإسلام واعتنقه، وكتب كتاباً من أجل تعريف الغرب بالإسلام، تحت اسم اكتشاف الإسلام. انظر الإسلام في الفكر الغربي. ص ٥٧

(٢) مارسيل بوازار أستاذ جامعي سويسري وكان يشغل مندوب المفوض الأوربي بالجمعية الثقافية الدولية وله عدة بحوث في الحضارة الإسلامية، ص٦٦ من كتاب الفكر الغربي، ص٦٦.

لقد أظهرت الرسالة القرآنية وتعاليم النبي أنها تقدمية بشكل جوهري. وتفسر هذه الخصائص المميزة انتشار الإسلام السريع بصورة عجيبة خلال القرون الأولى من تاريخه.

إن الإسلام حضارة أعطت مفهوماً خاصاً للفرد، وحددت بدقـــة مكانــه في المجتمع، وقدمت عدداً من الحقائق الأولية التي تحكم العلاقات بين الشعوب.

من المفيد أن نسجل إلى أي مدى يؤثر مفهوم معين للعالم والإيمان بمصير عــالمي للإنسانية، في طبع السلوك اليومي لملايين الأنفس من البشر، ولا يمكن لأي طريقـــة مثلى (أيديولوجية) معاصرة أن تدعي منافسة الإسلام في هذا الصدد.

وهكذا، نعثر على حجر الزاوية في النظام الأخلاقي والشرعي الإسلامي، وهو العدل، إن الإسلام نظام حياة.

ويقول(هوبرت فيشر) لقد وجدت الدول المسيحية نفسها تواجه التحدي مــن حضارة شرقية جديدة تأسست على دين شرقي جديد.

وهكذا انتشر الحضارة الإسلامية، وساهم فيها (الكثيرون) ليقدمـــوا جميعــاً العصر الرائع للآداب والفنون الإسلامية، التي مكنت شعوب الإسلام من الســـيادة الفكرية للعالم طيلة أربعة قرون، بينما كان العقل الأوربي غارقـــاً في قيعــان الجـــهل والكسل.

ويقول أيضاً لقد اشتمل الدين الجديد، منذ البداية على قدر كبير من السياسة.

والذي حدث أن جماعة المسلمين بالمدينة كونت أيضاً دولة، ثم كان على الأحداث التي تعقب ذلك أن تجعل منها نواة لإمبراطورية.

إن الفصل بين السلطتين (الدينية والزمنية) غير موجود على الإطلاق في الإسلام .. في روما كان قيصر هو الله، وفي المسيحية تقاسم قيصر والله المسيحية، أما في الإسلام فالله هو قيصر.

ويقول (مارسيل بوازار) في الإسلام، لا يمكن فهم السياسة بعيداً عن الدين.

إن المعاهدة التي عقدها محمد لدى وصوله المدينة.. أمكن اعتبارها "أول دستور مكتوب في العالم" فالقسم الأول منها يرسخ الإخاء الإسلامي، وينشئ كياناً سياسياً واضحاً، يضم قبائل المدينة العربية الإثنتي عشرة ومهاجري مكة. بينما ينشئ القسم الثاني "تحالفاً عسكرياً" مع قبائلها اليهودية العشر. أما أحكام "الدستور" الرئيسية التي وحدت بين سكان غير متجانسين، وخلقت جنس الدولة الإسلامية فكان كالآتي: تبقى الجماعات القبلية على حالها لكنها تتضامن من أجل تنظيم سياسي موحد.

ويقول أيضاً في بحث له **(حول الإسلام والحكومة الدينية)** إن الجماعة المسلمة لم تنشئ أبداً لا نظرياً ولا عملياً، حكومة دينية (ثيوقراطية)، كما زعموا ذلك في أكثر الأحيان بغير حق في الغرب، إن المصطلح ذاته (حكومة دينية) فيه مفارقة. فالخليفة ليس رئيساً دينياً، وفوق هذا لم يحدث أبداً أن حكمت المجتمع الإسلامي طبقة كهنوتية لسبب واضح، وهو أن الكنيسة مؤسسة غريبة عن الإسلام، فلا أهلية لأي إنسان أو أية هيئة للقيام بتعديل الشريعة الإلهية الموحى بها، أو إصلاحها أو إكمالها[1].

(١) ص ٨٠ من الإسلام في الفكر الغربي.

وهل يمكن، في المقابل، أن نتحدث حقاً عن "ديمقراطية" بمعناها المفهوم بشكل عام؟ فلقد أمكن رؤية ميراث التقاليد الديمقراطية العربية والبدوية في المؤسسات الإسلامية الأولى. وقوى الطباع "الديمقراطي" على مر الزمن، إذ الواقع أن الإسلام قد حرر الأفراد، أثناء انتشاره، من طغيان الأديان وتعصب الحكومات، ولقد فهم كثيرون "المدينة الإسلامية" على أنها نوع من النظام، الجمهوري، قانونه الأساسي — أي دستوره — ثابت لا يتغير، وفي واقع الأمر، فإن القرآن يأمر بالشورى بين رئيس الجماعة وأعضائها.

ومن المفيد أن نذكر فرقاً جوهرياً بين الشريعة الإسلامية والتشريع الأوربي الحديث سواء في مصدريهما المتخالفين أو في أهدافهما النهائية، فمصدر القانون في الديمقراطية الغربية، حسب المفهوم الجاري، هو إرادة الشعب، وهدفه النظام والعدل داخل المجتمع، أما الإسلام، فالقانون صادر عن الله، وبناء عليه يصير الهدف الأساسي الذي ينشده المؤمن هو البحث عن التقرب إلى الله، باحترام الوحي والتقيد به، ويجب على المسلمين أن تتضافر جهودهم، داخل نطاق الجماعة، من أجل بلوغ الغايات التي يفرضها عليهم القرآن، وكل فرد يعتنق الإسلام، إنما يوافق على عقد اعتباري، ويؤسس القانون والأخلاقيات الاجتماعية الحق على الواجب المفروض على المؤمنين بلا تمييز، ويضمن احترام القانون بالمقابل حقوق أعضاء الجماعة[1].

وهكذا نعثر على حجر الزاوية في النظام الأخلاقي والشرعي الإسلامي، وهو العدل، إن الإسلام نظام حياة، ولابد أن يؤدي احترام قوانينه وتعليماته إلى خلق مجتمع متجانس، يغير حياة كل فرد ليشكل من المجموع جسماً واحداً هو "الأنا الجماعية".

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٨١.

ولقد بينت التجربة التاريخية أن العالم الإسلامي عرف من الطغيان والاضطهاد والظلم أقل قليلاً مما عرفته نظم الحكم الأخرى.

إن روح القرآن الكريم ونصه يجب أن توفر مثلما توفره القدوة بمحمد، ضمانات مطلقة لحماية كل فرد، فعدم الخضوع للظلم، سواء على المستوى السياسي أو المستوى الاجتماعي، ممكن قطعاً، فالقرآن يعلن أن ﴿ الله لا يحب الظالمين ﴾. ويوصي بالمعاقبة على الظلم، وإبداء مقاومة لا تلين في وجه الظالم الجبار، الذي سيعاقبه الله، فالمؤمن له الحق، إذاً، في معارضة حكومته وإقالتها إذا اقتضى الأمر. ولقد أعلنها أبو بكر، خليفة محمد صلى الله ليه وسلم، المباشر، صراحة في قوله: "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم" فالسيادة لله وحده، والحق في العصيان مضمر منذ البداية ضمن حدود معينة، ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

فالحكومة الإسلامية ليست حكومة "دينية" حيث أن صلاحيتها الوحيدة هي تطبيق أحكام الشريعة الموحى بها.

وهكذا تتميز السلطة هنا عن النظام الديمقراطي بالمعنى المتعارف عليه بوجه عام، لأنها تفرض نظرياً بعض المؤسسات، كما تفرض عملياً عدداً من المعايير الأخلاقية، بينما تسمح الديمقراطية ذات الطابع الغربي أن يختار الناس المؤسسات والمعايير حسب الاحتياجات والرغبات السائدة في عصرهم.

ويتوجب أن يمنع التشريع الإسلامي المفروض من الله والمقبول بحرية من المسلمين، من أن تقوم أغلبية مصيرها إلى زوال، عندما تكون في السلطة، بظلم أقلية

معارضة، ومن الواضح أن الممارسة العملية في الدول الإسلامية المعاصرة مختلفة عن ذلك كل الاختلاف"[١].

- ويقول أيضاً بارسيل بوزار: في كتابه الجوانب الإنسانية في الإسلام:

- لا شك في أن الوحي الديني قد ظهر في منطقة الشرق الأوسط مهد ديانات التوحيد الثلاث، ولعل الإسلام هو التجلي الأخير والأكمل للحضارة في هذه المنطقة من العالم، ولقد نفذت أفكاره إلى أوربا وآسيا باللغة العربية، عبر البحر المتوسط وفوق جبال البرانس.

والإسلام باعتباره ديناً وفق المعاني الاشتقاقية الثلاث لكلمة الدين في اللغة الفرنسية، فإنه يقتضي، من ناحية، اختياراً تطوعياً أو اختياراً حراً بالخضوع إلى شريعة وإلى قواعد للأخلاق، وممارسة الشعائر، كما يستلزم، من ناحية أخرى، تصنيف تراث إنساني خاص والحفاظ عليه. وأخيراً وعلى وجه الخصوص، فإنه يحدد وضع المؤمن أمام القيوم، وكذلك علاقات التضامن بين الناس، وهكذا يظهر لنا الإسلام كعمل باهر ومتوافق سياسياً واجتماعياً، وظاهرة تاريخية[٢] جديرة بالتأمل والاعتبار.

وفي كلمة موجزة، فإن الإسلام حضارة أعطت مفهوماً خاصاً للفرد، وحددت بدقة مكانه في المجتمع، وقدمت عدداً من الحقائق الأولية التي تحكم العلاقات بين الشعوب، كما أن هذه الحضارة لم تقدم فقط مساهمتها التاريخية الخاصة في الثقافة العالمية، ولكنها كانت تؤكد أيضاً، ولها مبرراتها، على تقديم حلول للمشاكل

---

(١) الإسلام في الفكر الغربي، ص٨٣.

(٢) ليس الإسلام ظاهرة تاريخية. بل هو واقع منذ نشأة الإنسانية في عهد آدم حتى الآن والظاهرة هي الاستثناء التي تشذ عن هذه القاعدة.

الرئيسية للأفراد والمجتمعات، والمشاكل الدولية التي تثير الاضطرابات في العالم المعاصر.

إن الإسلام هو اتصال بين الله وبين الإنسان، وهو انغماس الكائن النسبي في الكائن المطلق، بل إن جوهر هذا الدين يرتبط باسمه - فعندما تكون هناك ترجمة مرضية - فالإسلام هو "تسليم" يقيني نشط وعن طواعية، إلى المشيئة الإلهية، وينتسب الإسلام، بجذره اللغوي، إلى الكلمة العربية التي تعني السلام والطمأنينة، وعلى كل حال، فإن هذين المفهومين - التسليم والسلام - يلتقيان في المنظور الإسلامي.

إن القبول الورع، من الفرد أو الجماعة، باحترام الشريعة الموحى بها، إنما يعبر عن محاولة دائمة ونشطة يقوم بها الإنسان للدخول في حالة من التوازن الهادئ مع عالم فريد ومتماسك، يحكمه قرار إلهي، وعندما يكون الدين مؤسساً على عقيدة راسخة تماماً في توحيد الله، فإنه ينمي فكرة تحقيق عالم متوافق، تحكمه شريعة فريدة عالمية، ثابتة بلا تغيير. ومن الناحية التاريخية، فلقد أنجب هذا الدين "أمة" وأوجد أسلوباً للحياة والعمل والتفكير، وفي كلمة واحدة، فقد أنجب حضارة.

وفضلاً عن أن الإسلام دين موحى به، فقد تأكد وجوده كظاهرة تاريخية واجتماعية، ثم يجب التفكير فيه باعتباره الجزء المكمل لتجمع عالمي مترابط، وأنه يحدث بدوره تأثيرات خاصة في مختلف مجالات الحياة الأخلاقية، وفي هيكلة مؤسسات الجماعة المسلمة.

ولسوف يستأثر الإسلام بتفكيرنا، بصفته أولاً ديناً أو مثـلاً أعلـى مطلقـاً، ومنهجاً للتفكير والعمل للفرد والجماعة، وهكذا شهد القرن السابع الميلادي نـزول الوحي النهائي والثابت وتأسيس المدينة الإسلامية[١].

موقف الحضارة الإسلامية من غير المسلمين :

وكان الإسلام مضرب الأمثال في كيفية التعامل مع الآخر فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحضر ولائم أهل الكتاب، ويغشى مجالسهم، ويواسيهم في مصائبـهم، ويعاملهم بكل أنواع المعاملات التي يتبادلها المجتمعون في جماعة يحكمها قانون واحـد، وتشغل مكاناً مشتركاً، فقد كان يقترض منهم نقوداً ويرهنهم متاعاً، ولم يكن ذلـك عجزاً من أصحابه عن إقراضه، فإن بعضهم كان ثرياً، وكلهم يتلهف على أن يقرض رسول الله، بل كان يفعل ذلك تعليماً للأمة، وتثبيتاً عملياً لما يدعو إليه مـن سـلام ووئام، وتدليلاً على أن الإسلام لا يقطع علاقات المسلمين مع مواطنيهم مـن غـير دينهم.

كان عمر بن الخطاب بالشام، وقد حانت الصلاة، وهو في كنيسـة القيامـة، فطلب البطريق من عمر أن يصلي بها، وهمّ أن يفعل، ثم اعتذر بأنه يخشى أن يصلـي بالكنسية فيدعيَ المسلمون فيما بعد أنها مسجد فيأخذوها من النصارى.

وكتب للمسلمين كتاباً يوصيهم فيه بألا يصلوا على الدرجة التي صلى عليـها إلا واحداً واحداً، غير مؤذنين للصلاة، وغير مجتمعين[٢].

إن هذه ليست سماحة فحسب، وإنما هي سماحة مضاعفة تتخطى الحـاضر إلى المستقبل، سماحة مضاعفة تنبع من نفس طاهرة، وتعتمد على بصيرة نفـاذة بعيـدة

---

(١) هذه النقول كلها في كتاب الإسلام في الفكر الغربي.

(٢) تاريخ الطبري ، ص٤، ص١٦٧.

المرمى، سماحة مضاعفة لان صاحبها لا يعتمد على سماحته وحده، ولا على تحلله من التبعة وحده، إنما يريد ممن يجيئون بعده – طال الزمن أو قصر – أن يكونوا سمحاء مثله، ويريد أن يتحلل من تبعة يومه وغده، وإن لم يكن له في المخالفة ضلع.

وبينما هو يسير بالشام لقيه قوم من نصارى أذرعات يلعبون بالسيوف والريحان أمامه، كما تعودوا أن يفعلوا في الاحتفال بالعظماء، فقال: "ردوهم وامنعوهم" لأنه كان يكره الأبهة ومظاهر الملك، فقال أبو عبيدة بن الجراح: "يا أمير المؤمنين، هذه عادتهم، وإنك إن تمنعهم يروا أن في نفسك نقضاً لعهدهم". فقال عمر: "دعوهم، عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة".

أعرفت لماذا استجاب عمر لرأي أبي عبيدة ؟ لقد خشي أن يظنوا أنه مبغض لهم، عازم على نقض عهده معهم، وبحسبه من السماحة أن احتمال هذا الظن وحده جعله يغير من عادته، فرضي أن يلعبوا أمامه بالسيوف والريحان.

واشتهر عنه أنه كان ينصف من يشكو إليه من النصارى واليهود، فقد علم أن الوليد بن عقبة واليه على بني تغلب النصارى قد توعدهم، فخشي أن يوقع بهم شراً، فعزله وولى غيره.

ومر برجل يسأل على الأبواب، وكان الرجل ضريراً فقال له عمر: من أي أهل الكتاب أنت ؟ فقال: يهودي. قال عمر: فما الذي ألجأك إلى ما أرى ؟ قال: الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله وأعطاه مما وجده، ثم أرسل إلى خازن بيت المال وقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفنا إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، ووضع عنه الجزية[١].

---

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف ، ص٧١.

وأمر أن يعطى من الصدقات قوم من النصارى مصابون بالجذام، وأن يرتب لهم القوت[١].

وكذلك كان ابنه عبدالله، حدث مجاهد قال: كنت عند عبدالله بن عمر وغلام له يسلخ شاة، فقال: يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي، قال ذلك مراراً، فقال له: لم تقول هذا. فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه.

فعبدالله بن عمر يريد من غلامه أن يعطي جاره اليهودي أول الناس جميعاً، رعاية لحق الجوار، بصرف النظر عن دينه.

وكان عثمان بن عفان يعطف على شاعر نصراني هو أبو زبيد[٢].

ولم يكن اختلاف الدين مانعاً للذميين من أن يوظفوا في الدولة، فقد اصطنع عمر بن الخطاب بعض أسارى قيسارية كُتّاباً له، ووظفهم في الدولة[٣].

وإذا كان قد رفض أن يوظف مسيحياً من أهل الحيرة[٤]، فإن ذلك لم يكن لاختلاف الدين، وإنما كان لأنه لم يطمئن إليه، كما اطمأن إلى غيره، ولا لوم عليه في هذا الرفض، فقد كان يرفض تولية المسلم إذا توجس منه ظلماً للناس أو خيانة للمال.

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري، ص١٢٩ .
(٢) الأغاني، ج١٩، ص١٠٢.
(٣) فتوح البلدان ، ص١٤٢.
(٤) عيون الأخبار، ج٢، ص٤٢.

ثم اتخذ أبو موسى الأشعري كاتباً نصرانياً[١]. ثم توسع معاوية في إلحاق النصارى بخدمته، وحاكاه آخرون من البيت الأموي، فكان لمعاوية طبيب نصراني هو ابن أثال، وقد كافأه معاوية بوضع الخراج عنه، وولاه خراج حمص[٢].

وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية في بلاط الخليفة، مثل الأخطل شاعر البلاط، ومثل يوحنا الدمشقي مستشار عبدالملك بن مروان.

ثم اختار عبدالملك عالماً مسيحياً من مدينة الرها يدعى أثناس مؤدباً لأخيه عبدالعزيز، وكما عين عبدالعزيز والياً على مصر رافقه أستاذه، وجمع من مصر ثروة عظمية جداً.

وقد ظل كتاب الدواوين حتى زمن عبدالملك بن مروان من غير المسلمين. وفي القضاء والحقوق.

وفي القضاء والحقوق:

لم يفرق الإسلام بن المسلم والذمي في المعاملات العامة، لأن الجميع سواسية أمام القانون، لا تفضيل ولا محاباة، حتى وإن كان أحد الخصمين مسلماً رفيع المكانة، والآخر يهودياً أو مسيحياً.

فقد شكا يهودي علي بن أبي طالب للخليفة عمر، فقال عمر لعلي: قم يا أبا الحسن فاجلس بجوار خصمك، ففعل علي، وعلي وجهه علامة التأثر، فلما فصل عمر في القضية قال لعلي: أكرهت يا علي أن تساوي خصمك ؟! قال: لا، لكني تألمت لأنك ناديتني بكنيتي، فلم تسوِ بيننا، – ومعلوم أن الكنية للتعظيم – فخشيت أن يظن اليهودي أن العدل ضاع بين المسلمين.

(١) نفس المصدر السابق، ج١، ص٤٣.

(٢) تاريخ الطبري، ج٦، ص١٢٨.

فهل سجل التاريخ أو عرف الناس سماحة في العدالة ودقة المساواة إلى هذا الحد؟!

وتنازع الأمير العباسي إبراهيم بن مهدي هو وبختيشوع الطبيب بين يدي القاضي أحمد بن أبي داؤد، فزرى إبراهيم على بختيشوع، وأغلظ له، فأحفظ ذلك القاضي فقال: يا إبراهيم إذا نازعت أحداً في مجلس الحكم فلا ترفع عليه صوتك، ولا تشر إليه بيدك، وليكن قصدك أمماً وطريقك نهجاً، وريحك ساكنة، وكلامك معتدلاً، ووف مجالس الحكومة حقها من التوقير والتعظيم، فقال الأمير إبراهيم: أمرت بسداد، وحضضت على رشاد، ولست بعائد إلى ما يلثم مروءتي عندك، ويخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار، وقد وهبت حقي من هذا العقار لبختيشوع، فليت ذلك يمحو زلتي، ولم يتلف مال أفاد موعظة.

أية عظمة هذه ؟ القاضي يسوي بين الأمير المسلم ابن الخليفة المهدي وعم الخليفة المأمون، وبين طبيب نصراني من موظفي الدولة، والأمير سرعان ما يستجيب لنصح القاضي، ويندم على ما فرط منه من الغلظة والتعالي، ثم يتنازل عن العقار الذي كانا يتنازعان عليه، لا لأنه حق للطبيب، بل ليعالج بمنحه للطبيب زلته معه.

وهذه طائفة من الأحكام يتساوى فيها المسلم والذمي:

١- هما سواء في القصاص، فالنفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن.

وهما سواء في الديات والضمان والتعازير، يجري على الذمي ما يجري على المسلم.

٢- وفي الأحوال الشخصية ابيح للذمي كل زواج يقره دينه، وإن خالف الدين الإسلامي، وأبيح له كل طلاق، وإن لم يتفق مع الإسلام.

وليس للإسلام أن يتعرض للذميين في شيء من هذا، إلا إذا احتكموا إليه.

٣- سوى الإسلام في الحرمان من الميراث بين الذمي والمسلم، فلا يرث المسلم قريبه الذمي، ولا يرث الذمي قريبه المسلم، ولا يرث الزوج المسلم زوجته الكتابية، وكذلك لا ترثه.

٤- أباح الإسلام للمسلمين أن يأكلوا من طعام أهل الكتاب وذبائحهم، بشرط أن يكون المذبوح مما يحل للمسلمين أكله.

قال تعالى:﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم﴾[1].

وكان رسول الله والمسلمون يأكلون من طعام أهل الكتاب.

٥- أحل الإسلام للمسلم أن يتزوج نصرانية، أو يهودية، وتبقى على دينها، ولها على زوجها من الحقوق مثل ما للمسلمة.

قال تعالى:﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامهم حل لهم، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾[2].

أما زواج المسلم بمشركة فإنه باطل، لأن الصلة القلبية لا تتحقق بين زوج مؤمن بالله وزوجة مشركة ثم إن الأبناء عادة ما ينشئون على دين الأقوى.

وقد بنى هذا على سماحة الإسلام وتساهله مع أهل الكتاب، لأن الزوج المسلم مؤمن باليهودية وبالمسيحية، ومصدق بموسى وعيسى عليهما السلام، فهو لا يجبر زوجته الكتابية على الإسلام، ولأن في المصاهرة قضاء على الأحقاد، ولهذا كثيراً ما تزوج المسلمون بكتابيات.

---

(١) المائدة : ٥.

(٢) المائدة : ٥.

لكن لا يحل لمسلمة أن يتزوجها كتابي لأن نظر الكتابي إلى الإسلام يختلف كل الاختلاف عن نظر المسلم إلى سائر الأديان، فالكتابي لا يؤمن بمحمد كما يؤمن المسلم بموسى وعيسى، ومن هنا تكون الصلة الاعتقادية بين الزوجين معدومة، ثم إنه قد يهددها بتغيير دينها، وعلى أن أولادها يتبعون أباهم في دينه، وهي لا تستطيع ردهم، يضاف إلى ذلك أن لزوجها عليها ولاية وسلطاناً، والإسلام لا يجعل لغير المسلم ولاية على المسلم.

ولهذا كله منع الإسلام المسلمة من أن يتزوجها كتابي.

لكن المسلم لا يرث زوجته الكتابية ولا ترثه.

وليس هنا منفذ للاعتراض، لأن الإسلام أبطل ميراث الزوج كما أبطل ميراث الزوجة، وفي هذا عدل وسماحة.

أما الشريعة اليهودية فإنه تورث الزوج اليهودي من زوجته غير اليهودية على حين أنها لا تورثها منه بل يُحرم على اليهودي الزواج من غير اليهوديات ما عدا اليهود بخس وغير آدميين على الحقيقة.

والأصل في ذلك أن الإسلام يجعل اختلاف الدين مانعاً من الإرث، وهو في هذا المنع يسوي بين الأديان كلها، فلا يفضل المسلم على النصراني أو اليهودي، فإذا كان النصراني أو اليهودي لا يرث قريبه المسلم فكذلك المسلم لا يرث قريبه من هؤلاء ولا هؤلاء.

٦- أما الحرية الدينية فقد كفلها الإسلام لأهل الكتاب، فهم أحرار في عقيدتهم، وعبادتهم، وإقامة شعائرهم في كنائسهم، ولهم أن يجددوا ما تهدم منها، وأن يبنوا جديداً، ولهم دق نواقيسهم إيذاناً بصلاتهم، ولهم إخراج صلبانهم في يوم عيدهم.

ولم يحدث في زمن الفتوح أن هدم المسلمون كنائس أهل الكتاب، أو حملوهم على الإسلام، أو اضطهدوهم اضطهاداً دينياً أو سياسياً يرغمهم على أن يعتنقوا الإسلام وسيلة للنجاة.

ففي العهود التي أسلفناها أعطى عمر وغيره أهل الكتاب الأمان على كنائسهم وصلبهم.

وفي المعاهدات مع فارس نص على حرية أهلها في شعائرهم الدينية.

وفي مصر أعطى عمرو بن العاص أهلها الأمان على كنائسهم وصلبهم[١].

ويذكر حنا النيقي أن المسلمين في مصر وافقوا على ألا يحتلوا أية كنيسة، وعلى ألا يتدخلوا في شؤون الأقباط بأية صورة من الصور، ويذكر أن عمرو بن العاص جبى الضرائب المفروضة، لكنه لم يمد يده قط إلى شيء من أملاك الكنائس.

ولم يأت بعمل من أعمال النهب والتدمير، بل لقد حافظ على الكنائس إلى آخر أيامه[٢].

ففي أنحاء الإمبراطورية الإسلامية كانت الكنائس تبنى بحرية، وكانت تشيد بموافقة الحكام، وأحياناً بمساعدتهم، والزعم بأن عمر بن عبدالعزيز منع بناء الكنائس زعم مشكوك فيه، فلم يذكره سوى مؤرخ واحد، ولم تشر إليه المراجع النصرانية، مما ينهض دليلاً على عدم وقوعه[٣].

---

(١) الطبـري ، ج٤، ص٣٣٩.
(٢) أهل الذمة في الإسلام لتريتون، ص٤١.
(٣) نفس المصدر، ص٥٣،

وقد ذكر ابن العبري أن البطريق النسطوري أبرم اتفاقاً مع العرب، كان من شروطه أن يمد العرب يد المساعدة للنساطرة في تجديد كنائسهم القديمة[١].

وذكر السير توماس أرنولد أن بعض الخلفاء أمروا ببناء كنائسهم في الشام والعراق وشمالي الجزيرة ومصر، وأنفقوا عليها، وما يزال بعضها قائماً إلى اليوم مثل كنيسة (أبو سرجة) التي بنيت بالفسطاط في العصر الإسلامي الأول.

وقد بنى خالد القسري — والي بني أمية في العراق وفارس— لأمه المسيحية كنيسة لتتعبد فيها، في العهد الأول للدعوة الإسلامية، أيام أن كانت الحرب على أشدها بين المسلمين والروم والمسيحيين[٢].

وإذا كان الأستاذ تريتون — على غمزاته الكثيرة للمسلمين — حرص على أن يفصل القول في حوادث الاعتداء على بعض الكنائس منذ أواخر القرن الثالث الهجري، فإنه قد أغفل السبب الأصيل، وهو أن النصارى أو اليهود كانوا يوغرون صدور المسلمين، ويتحرشون بهم، فتشب الثورة، وكثيراً ما كان المعتدون من النصارى أو اليهود يعتصمون بالكنائس، فلا مندوحة للمسلمين من اقتحامها لتأديب العادين عليهم.

٧- مال الذمي مصون كمال المسلم، قال صلى الله عليه وسلم: من ظلم معاهداً، أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة[١].

وأوصى بهم أبو بكر وعمر كما سبق.

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) انتشار الإسلام لتوماس أورنولد، ص٦١.

(١) أخرجه أبو داود.

٨- أباح الإسلام للمسلمين أن يعاملوا الذميين جميع المعاملات المباحة، ولهم أن يضيفوهم ويستضيفوهم، وأن يبادلوهم الهدايا.

٩- للمسلم أن يعطي صدقة الفطر والتطوع للفقير الذمي من أهل بلده.

١٠- للمسلم أو الذمي خمس الركاز الذي يعثر عليه في غير ملك لأحد، وللدولة أربعة أخماسه.

هذه نماذج وغيرها كثير ومثبوت في بطون الكتب الإسلامية وغير الإسلامية تشير إلى أن الإسلام دين حضاري بكل المقاييس من حيث النصوص المؤسسة لحضارته ومن حيث التطبيقات العملية للمسلمين على مرَّ التاريخ شهد بذلك العدو قبل الصديق. فلا مجال إذاً ولا قيمة للأكاذيب التي تنطلق من هنا وهناك معلنة أن الإسلام يحارب المدنية ويتصادم مع الحضارة. بل هو دين قد أنشأ حضارة أمدت العالم بنورها وتقدمها ردحاً من الزمن. وهذه الحضارة لم تكن كغيرها من الحضارات - وإن احترمتهم - لكنها تميزت عنهم بخصائص وسمات ليست توجد في غيرها.

٢ - خصائص الحضارة الإسلامية ومميزاتها

الحضارة الإسلامية حلقة في سلسلة الحضارات التي قامت قبلها والتي تبعتها، وهذه الحضارة قامت على مجموعة من العوامل لا تختلف عن تلك التي قامت عليها الحضارات الأخرى، إلا أن حضارتنا الإسلامية تفردت وتميزت بعوامل أخرى لا نجدها في تلك الحضارات، وكانت هذه العوامل هي روح الحضارة الإسلامية، وهي السر الغريب في قوتها ونهضتها الجبارة التي دفعتها إلى الأمام بطريقة أذهلت الباحثين والدارسين في ميدان التاريخ والحضارة.

وهذه العوامل التي تفردت بها حضارتنا الإسلامية، تضمن لها البقاء والقوة والاستمرارية على مدى الدهر، إلا أن فقدان هذه العوامل أو واحد منها كفيل بانحلالها وسقوطها وانزوائها، وأهم هذه الخصائص :

أولاً: أن الحضارة الإسلامية أول حضارة فعالة في التاريخ، قامت على أساس الوحدانية المطلقة لله، وكان عمادها في ذلك هو القرآن الكريم، الذي اتخذه المسلمون أساس وحدانيتهم، وميزان حياتهم، ومقياس تعاملهم مع الخلق والخلق.

فالقرآن الكريم أصبح هو المسير لحياة الأمة الإسلامية، حدد العلاقة بين الإنسان وربه، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، وبين الحاكم والمحكوم، ولقد وضحت فعالية هذا الدستور العظيم في حياة الأمة العربية، وشعوب العالم عندما التزمت به الأمة عقيدة ومنهجاً.

لقد قضى الإسلام على الوثنية والشرك في جزيرة العرب، وجمع بين قبائلها بعد تشتتهم، وآخى بينهم مؤاخاة ما عهدوها، وهذب نفوسهم:﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله

جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾[١].

عجيب فعل هذا القرآن، وهذا الدين في تغيير أطوار النفوس، فلقد جعل هذا الدين في العرب خاصية في أخلاقها ساقتها إلى العمل الصالح، فوحد بين مقاصدها، ووجهها إلى هدف واحد، استهواهم القرآن فآمنوا به، وما هي إلا فترة قصيرة حتى هذبت مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم نفوسهم، وأنشأت منهم رجالاً أصبحوا في عقلهم وعدلهم موضع الإعجاب على توالي القرون، أناس أصبح هذا حالهم فلا غرابة أن يفتحوا العالم القديم من مشرقه إلى مغربه، وأن يدخل الناس أفواجاً في هذا الدين القويم على أيديهم، بما رأوا في أهله من صدق وأمانة وعدل وتسامح، ورفق بالمستضعفين من الأولاد والنساء والرهبان، أناس ينشرون كلمة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولقد حمل العرب هذا القرآن إلى ما وراء جزيرتهم، وفيه ما يصلحهم ويصلح غيرهم، وطبقوا تعاليمه، فانفتحت لهم آفاق الدنيا، وقادوا الإنسانية قروناً طويلة، فإن ما أدركته الشعوب التي دخلت تحت سيطرة الإسلام، وما عرفته في خلفائها الأول وقوادهم، من عدل ومواساة ومؤاخاة ورحمة، جعلها تسارع إلى اعتناق دينهم ولغتهم وثقافتهم. يقول لوبون: "كان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي، وقد ترك العرب الناس أحراراً في أمور دينهم، وأظل العرب أساقفة الروم، ومكارنة اللاتين بحمايتهم فنال هؤلاء من الدعة والطمأنينة" [٢]. ثم يقول: "وكان يمكن أن

(١) آل عمران: ١٠١-١٠٣.

(٢) لوبون: حضارة العرب، ص١٣٥.

تعمى فتوح العرب الأول أبصارهم فيقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في جميع أنحاء العالم"[١]. والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ورحمة العرب وتسامحهم كانا وراء اتساع فتوحهم، واعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت"[٢].

ويقول أحد الباحثين المحدثين: "لقد صان المسلمون أنفسهم من مثل خطايا الغرب فيما يمس رفاهية طبقات العمال، وقد حافظ المسلمون بإخلاص على تلك النظم الباهرة التي يسوى بها الإسلام بين الغنى والفقير، والسيد والأجير، وليس من المبالغة أن يقال: إن ذلك الشعب الذي يزعم الأوروبيون أنهم يرغبون في إصلاحه هو في الحقيقة خير مثال يقتدون به في ذلك"[٣].

وعلى العموم فإن القرآن الكريم قد قعد قواعد الحضارة الإسلامية في العبادات والمعاملات، والأخلاق، والمبادئ والمثل، فكان بذلك هو الأساس الرئيس لمعالم هذه الحضارة الراقية.

ثانياً: الحيوية والديناميكية في الحضارة الإسلامية:

الإسلام دين حيوي وديناميكي، يدعو إلى النشاط والعمل والإخلاص، نظامه ديناميكي يصلح لأية أمة في أي زمان ومكان.

والإنسان أعطاه الله إمكانيات خلاقة، وقدرات فذة، ورؤية عظيمة واسعة الآفاق، ولكن هذا وحده لا يكفي، إن إمكانياته وقدراته لها أرضيه واسعة للسعي

---

(١) نفس المصدر : ص١٣٤.

(٢) نفس المصدر : ص٢٢٥.

(٣) ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، ص١٣٩. عن مسيو لوبليه: عمال الشرق.

والحركة، وإن تقليص هذه الأرضية هي إهدار لطاقات الإنسان، أو تجميدها، ولو ترك الإنسان وحده لظل يتحرك كالأعمى، يقوم ويسقط، وهذا ما حدث فعلاً لكل الأمم والشعوب التي استعبدتها القوانين الوضعية، والتي ما لبثت أن سقطت قوانينها، وسقطت من بعدها الأمة، وليس من المعقول أن يظل الإنسان أسير جهله وتخبطه، ويهدر طاقاته الفاعلة في سبيل البحث عن المنهج، وهل بإمكان الإنسان أصلاً أن يصل إلى المنهج القويم، ويحدد بموضوعية كاملة قيمه العليا التي يتحرك على ضوئها دون أن يخطئ.

إن في القرآن الكريم مئات الآيات والإشارات التي تتخذ في الإنسان هذا المعنى الحضاري العظيم، وعليه فالإسلام خاتم الرسالات ومصدقها، دعوة حركية على هذا النطاق، نطاق العقيدة والدين والمنهج، حركة الإنسان والشعوب والأمم من الجهل والتخلف إلى العلم والتحضر بطريقة موجهة، تسير للإنسان أحسن سبل التعامل مع الطبيعة والحياة، قال تعالى:﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً، وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون﴾[1]. ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر﴾.[2]﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾[3].﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾[4]. ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[5].

---

(١) الزخرف: ١٠

(٢) النمل : ٧

(٣) النحل : ١٤

(٤) الحج : ٩

(٥) الملك : ١٠

فالله سبحانه وتعالى حين استخلف الإنسان في الأرض كان من أكبر مهماته العبادة وإعمار الأرض، وعليه فقد دعا القرآن الإنسان إلى العمل والحركة والبحث، لأن في ذلك إعماراً للأرض، واستمرارية للحياة وللحضارة.

والمسلمون الأوائل حين طبقوا هذا المبدأ وصلوا إلى ما وصلوا إليه في جميع ميادين الحضارة العلمية والمادية، يقول لوبون: "وقد رأينا العرب ذوي أثر بالغ في تمدين الأمم التي خضعت لهم، وقد تحول بسرعة كل بلد خفقت فوقه راية الرسول، فازدهرت فيه العلوم، والفنون، والآداب، والصناعة، والزراعة أيما ازدهار"[١]. ويقول في مكان آخر: "وامتازت حضارة العرب بميل شديد إلى الفنون والآداب والعلوم على الخصوص، وأنشأ العرب في كل ناحية مدراس ومكتبات ومختبرات، وترجموا كتب اليونان، ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعة والكيماوية والطبية والفنون...... وأكثروا من إنشاء الطرق والجسور والفنادق والمشافي والمساجد في كل مكان"[٢] كما سنوضحه في موضعه إن شاء الله.

ولذلك كله يمكن وصف الحضارة الإسلامية بأنه حضارة قوية في حيويتها نشطة وفعالة، أثرت في المدنية حتى عصرنا الحاضر في الشرق والغرب، ولا سيما أوروبا التي هي مدينة اليوم لحضارتنا بالفضل الكثير في شتى ميادين الحياة بلا استثناء.

فقد جاء في كتاب "إيقاظ الغرب" قول لآثر ليونارد يتلخص في أن المدنية الإسلامية عند العرب وصلت إلى أعلى مستوى من عظمة العمران، والعلم، فأحيت جذوة المجتمع الأوروبي، وحفظته من الانحطاط، وقوله: لم نعترف ونحن نرى أنفسنا في أعلى قمة من التهذيب والمدنية بأنه لولا التهذيب الإسلامي ومدنية العرب وعلمهم

---

(١) لوبون : حضارة العرب ص ٣٤٤.

(٢) نفس المصدر : ص ٢٧٤.

وعظمتهم في مسائل العمران، وحسن نظام مدارسهم لكانت أوربا اليوم غارقة في ظلمات الجهل"[١].

ثالثاً: الشمول والعالمية في الحضارة الإسلامية:

نستطيع أن نصف الحضارة الإسلامية بالعالمية والشمول، فرسالتها كانت للناس كافة.

والحضارة الإسلامية لم تقتصر على مدنية الإسلام فحسب، بل إن الإسلام كان أساس حضارة المسلمين، والعرب كان لديهم مدنيتهم قبل الإسلام، كما أن خروج العرب من جزيرهم جعلهم يقتبسون ما لا يتنافى مع الدين الإسلامي من وسائل الحضارة ومنجزاها لدى تلك الشعوب.

والحضارة الإسلامية شاملة لكل المنجزات الحضارية المعنوية والمادية، فقد شملت العلوم، والآداب، والفنون، والصناعات، التي تناولت شؤون الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولقد عنيت هذه الحضارة بجميع شؤون الحياة التي تمس حياة الفرد أو الجماعة، ونظمت العلاقة بين أمور الدنيا والآخرة. ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾[٢]. ونظمت العلاقة بين جميع الناس. ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾[٣].

ومن المؤسف حقاً أن الكثير من الباحثين والمحدثين والغالبية العظمى من المستشرقين يقولون بعدم أصالة الحضارة الإسلامية، ويزعمون تعدد مواردها، وكثرة

---

(١) ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية ص ٣٩٠.

(٢) القصص : ٧٧.

(٣) آل عمران : ١٠٣.

أصولها ومصادرها التي استقت منها، والتيارات التي نفذت إليها، وتفاعلت فيها، وبالتالي فهم لا يرون فيها إلا صورة للتأثيرات الأجنبية، وانعكاساً للنفحات التي هبت عليها من الأديرة والصوامع والبيع والمدارس العقلية والدينية التي فاجأت العرب والمسلمين في أثناء فتوحاقم لبلدان العالم القديم.

إن هؤلاء الدارسين ليس لديهم القدرة على تصور عبقرية الحضارة الإسلامية، غباء أو استغباء أو حقداً، لم يستطيعوا أو يتصوروا علوم القرآن الكريم، وعلوم الدين الإسلامي، التي لم يأت بها أحد من قبل، ولن يأتي بها أحد من بعد إلى آخر الدنيا، لم يستطيعوا أن يتصوروا المثل والأخلاق والمبادئ الإنسانية التي جاء بها القرآن الكريم، لم يستطيعوا أن يتصوروا الروح العلمية الفائقة، روح التجربة والنقد والتحليل والمتابعة والاستقراء، التي عالجوا بها تراث اليونان والرومان، والفرس والهنود، وأخرجوه من قيود الأديرة والخزائن، ونفضوا عنه غباره، وصححوه، وقدموه للناس بروح علمية ناطقة بالحقيقة، مفيدة لحياة الأمم والشعوب.

كل ذلك لم يستطيعوه، بل حاولوا البحث عن الأصول، فإن لم يجدوها، لفقوها وتبرعوا بها، وحملوا التاريخ وحضارة العرب فوق ما تحمل، واختلقوا الذرائع والمبررات لتحوير الحقائق والوقائع لتنسجم مع استنتاجاقم، وتدعم أقاويلهم.

إن هذه الدعوات المرجفة، التي دأبها التشكيك في الفكر العربي الإسلامي، تنطلق دائماً من موقف الاستعلاء والصلف، وإنكار إعطاء الحق لأهل الحق، التي يتسم بها أهل الحضارة الغربية أنها حضارة عنيدة تعوزها مجموعة من القيم المبادئ والمثل الإنسانية الإسلامية، لتردها إلى صوابها، وتوقظ فيها الحس الخلقي النبيل، هذه النزعة العنصرية هي التي جنحت بالأوروبيين ومن حاكاهم إلى إعلان اختصاص

الحضارة الإسلامية بالنقل والاقتباس دون الإبداع الذي هو حكر على حضارات الأمم الآرية وحدها.

رابعاً: النزعة الإنسانية في الحضارة الإسلامية:

لقد أعلن القرآن الكريم منذ ظهور الإسلام عن وحدة النوع البشري، وعن احترام إنسانية الإنسان، هذه النزعة الإنسانية التي نادى بها دين الإسلام، هي لعمري من أهم مميزاتها وخصائصها، إذ لولاها لفقد كل معيار يربط بين الإنسان وأخيه الإنسان، الحب، والوفاء، والصدق، والأمانة، والحرمة، والحقوق، كل هذه الأمور معايير تربط الناس بعضهم ببعض، إذ لو لم تكن هذه النزعة من أسس هذه الحضارة الإسلامية لانحل العقد، وانعدم التوازن في تكوين مجتمع الحضارة الإسلامية، أو لو لم يناد الإسلام بهذه الخاصية لبقي دخول الناس في دين الله منوطاً بالقوة والإجبار والإكراه وحد السيف. لقد كانت هذه الخاصية مفقودة في حضارات ما قبل الإسلام، فقدان الإنسان لسمعه وبصره، ولقد كانت هذه النزعة أصيلة في دين الإسلام. وعندما خرج المسلمون يبشرون بها في أرجاء الأرض، تأثرت بها الأمم، ودخل في هذا الدين الجديد، ونهلت من مواردها بعد حرمان طال ليله.

إن هذه الخاصية يندرج تحتها أمور تتعلق بحياة الإنسان الدينية، وحياته الاجتماعية المعيشية هي:

في العبادات: في الصلاة يقف الناس جميعاً في صف واحد بين يدي الله، لا يخصص في ذلك مكان لملك أو عظيم، وفي الصوم يجوع الناس جوعاً واحداً، لا ينفرد من بينهم أمير أو غني أو شريف، وفي الحج يقف الناس جمعهم على صعيد واحد تحت

عظمة الله، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، ولا بين شريفهم ووضيعهم، ولا بين أميرهم ومرءوسيهم، يلبسون لباساً واحداً، ويؤدون منسكاً واحداً[1].

قال تعالى: ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾[2].

﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾[3].

﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ﴾[4].

لقد نادى القرآن كل من دخل في الإسلام باسم واحد: يا أيها الناس،يا بني آدم، يا أيها الذين أمنوا، ولم يخص عرقاً ولا فئة ولا أمة.

فإذا انتقلنا إلى أحكام (القانون) المدني وجدت الحق هو الشرعة السائدة في العلاقة بين الناس، والعدل هو المقصود من التشريع، ودفع الظلم عن كل مضطهد أو مظلوم أياً كان انتماؤه، وفي العقوبات نجدها واحدة لمن يستحقها من الناس، فمن قتل قتل، ومن سرق قطعت يده، ومن اعتدى أدب، لا فرق بين واحد من الناس وآخر، فالكل واحد أمام قانون الله. ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾[5].

---

(١) السباعي : من روائع حضارتنا ص ٦٣

(٢) الأعراف : ٧

(٣) آل عمران : ٩٧.

(٤) البقرة : ١٨٣.

(٥) البقرة : ١٧٨.

ويسمو التشريع إلى أرفع من هذا حين يثبت الكرامة الإنسانية للناس جميعاً بغض النظر عن أديانهم وأعراقهم وألوانهم، فيقول الله تعالى: ﴿ ولقد كرمنا بني آدم﴾[١].

هذه الكرامة هي التي تضمن للناس جميعاً حقوقهم في الحياة والعقيدة والعلم والعيش، هي للناس جميعاً، ومن واجب الدولة أن تكفلها لهم على قدم المساواة بلا استثناء[٢].

ونجد أن أمثلة المساواة بين الناس في شرع الله قد ملئت بها بطون كتب السنة والصحاح والأسانيد، وكتب الفقه فضلاً عن القرآن الكريم، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة الذي طبق أروع الأمثلة لمبادئ العدل، حين سرقت امرأة من بني مخزوم على عهده صلى الله عليه وسلم، وجيء بها لتعاقب، فأهم ذلك قريشاً، وقالوا: من يشفع لنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في إسقاط الحد عنها؟ ثم ذكروا أن أسامه بن زيد حبيب إلى قلب الرسول، فكلموه في أن يشفع لها عنده، فكلمه بذلك، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً وقال لأسامة: اتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام الرسول في الناس خطيباً، فقال: "إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها[٣]. فأي عدل ومساواة بعد هذا؟.

---

(١) الإسراء : ٧٠.

(٢) السباعي : من روائع حضارتنا ص٦٣.

(٣) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ١٨.

والإسلام يعلن المساواة بين الناس فلا أنساب بينهم ولا أعراق، والكل من نفس واحدة. ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾[١].

ـ هنا أكد الإسلام على مبدأ المساواة بين الناس، لئلا يستعلي بعضهم على بعض، فلا فوارق ولا طبقات.﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾[٢].

وقد ترفع الحياة بعد ذلك أفراداً وتخفض آخرين، وقد تغنى فئات ويفتقر كثيرون، وقد يحكم شخص وتخضع أمة، وقد تبيض بشرة أقوام وتسود ألوان أمم أخرى، إن هذا وإن كان سنة الحياة، ونظام الله في خطة فليس من شأنه أن يميز من ارتفع على من أتضع، ولا من اغتنى على من افتقر، ولا من حكم على من خضع، ولا ذا اللون الأبيض على ذي اللون الأسود، بل الكل سواء عند الله في إنسانيتهم ومقتضى حياتهم، فلا تفاوت بينهم إلا بالتقوى. ﴿ إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾[٣].

﴿ إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد﴾[٤].

﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا، لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾[٥].

---

(١) النساء : ١.
(٢) الحجرات : ١٣.
(٣) الحجرات : ١٣
(٤) الكهف : ١١.
(٥) مريم : ٩٣-٩٥.

وها هو رسول الله صلى اله عليه وسلم يخاطب الناس في حجة الوداع: "يـــا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم مـــن تـــراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت ؟ ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب"(١).

والحمد لله الذي جعل في خلفاء رسول الله من يعمل بكتاب الله وسنته، فكتب التواريخ والسير تحدثنا عن عمرو بن العاص عامل عمر بن الخطاب على مصر عندمـا ضرب ابن له رجلاً قبطياً، فلما هدده وتوعده بالشكوى إلى أمير المؤمنين لم يكـــترث وقال له: اذهب فأنا ابن الأكرمين، فلما جاء القبطي كان عمر بن الخطاب في مجلســه ومعه عمرو بن العاص وابنه ووفود الحجاج، ولما علم أنه ضربه ظلماً ناولــه ســوطه وقال له: اضرب ابن الأكرمين كما ضربك، اضرب ابن الأكرمين، اضـــرب ابـــن الأكرمين، وقال: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ قال: فضربه حـتى أثخنه ثم قال: أجعلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه، ثم التفت إلى المصري، فقال: انصرف راشداً، فإن رابك ريب فاكتب إليّ(٢). رحـــم الله عمـــر الذي أعز الله به الإسلام.

وقصارى القول أن حضارتنا لم تعرف هذا التمييز العنصري، وأن حضـــارة لا يستعلي فيها عرق على عرق، ولا لون على لون، هي الحضارة الـــتي تســـعد بهـــا الإنسانية الواعية الكريمة، وإن ممن يدعون الحضارة اليوم، ويزعمـــون أنهـــم محـــررو الإنسانية، وينادون بالمساواة بين الرجل والمرأة، مساواة الفسخ والفساد والانحـــلال، في أوروبا وأمريكا، هم لا يزالون يعيشون في حضارة الجاهليـــــة، حضـــارة الجـــهل

---

(١) ابن هشام: السرة النبوية ج٤ ص ٤٤٧ تحقيق أحمد السقا.

(٢) ابن الجوزي : سيرة عمر بن الخطاب، ص ١٠٠.

والتفرقة العنصرية، حضارة هي الهمجية والبربرية، يدعـــون الحضـــارة والإنســـانية، والتاريخ يشهد منذ القرن الماضي إلى اليوم بحضارتهم التي يندى لها الجبين، في زعـــم المساواة وحسن التعامل بينهم، وبين الرجل الأسود في أفريقيا وأمريكا، وإن وضـــع هؤلاء الملونين في الولايات المتحدة، وحكومة جنوب أفريقيا وكينيا ما يعـــانون مـــن تفرقة عنصرية — اعظم شاهد على الهمجية التأخر لحكومات الدول الـــتي ادعـــت التقدم والحضارة والرقي في القرن العشرين، إنهم يـــهتمون بـــالطيور والحيوانـــات، ويعطفون عليها، ويجرون لها العمليات الجراحية لإنقاذهـــا، بـــل وتنتشـــر فنـــادق الحيوانات في أعظم المدن ويقتلون الإنسان في إفريقيا، ولقـــد حـــن قلـــب أمريكـــا فسمحت بوضع علم للفلسطينيين على سطح القمر، وعز عليها أن ت وافق نصـــب علم لهم على الأرض، بل ساعدت اليهود على قتلهم وتشتيتهم، بحجة إنهـــا تتفـــهم وضع إسرائيل في دفاعها عن نفسها ضد الهجمات الإرهابية التي يقوم بهاب أطفـــال الحجارة .

٣ - مكانة الحوار في الإسلام

لقد انطلقت المبادرة إلى الحوار الديني في الأساس من الإسلام، والقرآن الكريم يقول في ذلك موجهاً الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم متضمنـــاً المبـــادرة إلى الحوار الديني:﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله [آل عمران : ٦٤].

فهذه الدعوة القرآنية دعوة صريحة إلى الحوار الديني بين طرفـــين: الجـــانب الإسلامي وجانب أهل الكتاب من المسيحيين واليهود، وهناك قضية يـــدور الحـــوار حولها وهي القضية المحورية في الدين أساساً وهي قضية الألوهية.

ولا يكتفي القرآن الكريم بمجرد المبادرة، بل يرسم أيضاً أسلوب الحوار.

فالحوار سيؤدي إلى مناقشات ومجادلات، ولكنها ينبغي أن تلتزم بأدب الحوار، ومن هنا يقول القرآن في ذلك:

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾. كما جعل القرآن الجـــدال بالحسنى أحد المناهج التي يحتم على الدعاة إلى الإسلام اتباعها لا مع أهـــل الكتـــاب فقط، بل مع كل الناس:

﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

ويمتاز موقف الإسلام في أي حوار مع المؤسسات الدينية الغربية بميزة كبرى لا تتوفر لغيره من الأديان وهي إيمانه بكل الديانات السماوية السابقة.

وهذه الميزة تجعله متحرراً من العقد والحساسيات والنفور الذي قد يشعر بـــه الآخرون في مثل هذه الأحوال[1].

---

(١) من كتاب الإسلام والغرب ص ٨٢

ومن أجل أن يكون هناك حوار مثمر وتعاون وثيق بين الجماعات البشرية أيـاً كانت انتماءاتها — دعا القرآن الكريم إلى ضرورة تعرف كل جانب علـى الجـانب الآخر، وتفهم مواقفه على قاعدة من المساواة التامة، وهذا مـا تعـبر عنـه الآيـة الكريمة:﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾.

وهذه الآية تبرز المعنى الإنساني العام لطبيعة الإسلام، فنحن نتعرف على الآخر من خلال تعرفنا على أنفسنا، الأمر الذي يؤكد وحدة الإنسانية، وهي تلك الوحـدة التي مصدرها الله، وقد أكد الإسلام على هذه الوحدة تأكيداً لا يقبل التأويل حـين اعتبر أن الإساءة إلى أي فرد من أفراد الإنسانية يعد إساءة إلى الإنسانية كلـها، وفي المقابل يعد تقديم الخير إلى فرد واحد من أفراد الإنسانية بمثابة تقديم الخير إلى الإنسانية كلها، وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة:

﴿ من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومـن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾.

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن الإسلام لم يقر فقط مبدأ الحوار بل دعا إليـه، كما وضع الشروط الكفيلة لإنجاح أي حوار على المستوى الديني الذي هـو أعقـد أنواع الحوارات على الإطلاق لأنه لا يمس أمور الحياة الدنيوية العادية الـتي يمكـن التساهل فيها، ولكنه يمس أمور العقيدة الدينية المترسخة في النفـوس والمتغلغلـة في الأعماق، فهي بطبيعتها أمور حساسة، ومع ذلك لا ينبغي أن نتهيب أو نخـاف مـن إجراء حوار حولها إذا ما توفرت الشروط الضرورية لذلك[1].

فإذا لم تفلح محاولات الحوار الديني في الوصول إلى نتائج فليس معنى ذلـك أن تكون هناك قطيعة مع الآخرين، فليحتفظ بمعتقـده: ﴿ لكـم دينكـم ولي ديـن﴾.

(١) نفس المصدر ص ٨٣ .

﴿واشهدوا بأنا مسلمون﴾. ولكن طريق التعاون والتفاهم والحوار حول ما يجمع الإنسانية يظل طريقاً مفتوحاً. فلنترك ما يستحيل الاتفاق فيه ولنتجه إلى ما يمكن الاجتماع عليه بدءاً من التعارف وتفهم كل فريق لوجهة نظر الآخر.

مفهوم الحوار الحضاري في الإسلام:

إن العلاقة بين الحضارات في منظور الإسلام تختلف تمام الاختلاف مع المنظور الغربي، إذ الإسلام يعترف بحوار الحضارات لا بصراعها ذلك أنه ينظر إلى الإنسان على أنه مكرم من قبل الله دون النظر إلى جنسه ولونه وحتى دينه، فالبشر جميعاً متساوون في الإنسانية وفي التكريم، وأنهم جميعاً لآدم وآدم من تراب.

ولهذا فإن الدين الإسلامي كان أبعد ما يكون عن العنف والصراع اللهم إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

فالصراع والحروب استثناء من القاعدة العامة القائمة على السلم والحوار.

وهناك فرق بين تدافع الحضارات وصراعها إذ التدافع يقوم جانب منه على الجدال والحوار ومحاولة إبراز محاسن كل حضارة لكن مع الإبقاء على الغير وعدم إلغائه من الوجود، كما قال تعالى:﴿ ادفع بالتي هي أحسن﴾.

بينما الصراع يقوم على استعمال القوة في إزاحة الآخر من الوجود.

ونحن نقر أن حضارات كثيرة قد أبيدت لكن ليس بفعل إنساني ولكن بقدر إلهي نتيجة كفرهم بآيات الله ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾. وقد أخبرنا الله عز وجل بأنه سبحانه ﴿أهلك عاداً الأولى﴾. وكان لها شأناً كبيراً في الحضارة حيث أخبر عنها بأنها ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾.

والإسلام من جانبه دين يقوم على السلام والتعايش مع الآخر والحوار القائم دائماً على التي هي أحسن.

بل إنه في مجال المحاورة يترل لدرجة أن يضع المسلم نفسه في درجة واحدة مع محاورة كما قال تعالى آمراً نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾.

ولهذا فإن علماء الإسلام قد وضعوا ضوابط للحوار مستنبطة من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ينبغي على المسلم أن يتمسك بها ويترسمها في حواره مع الغير،وهذه الضوابط .

أولاً : تجنب منهج التحدي: وذلك بالتزام الحسنى في القول والمجادلة قال تعالى:﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾. الإسراء ٥٣ وقال:﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن﴾. النحل ١٢٥. وقال:﴿ وقولوا للناس حسنى﴾. وقال:﴿ ادفع بالتي هي أحسن﴾.

ومن لطائف التوجيهات الإلهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم. الانصراف عن التعنيف في الرد على أهل الباطل حيث قال الله: ﴿ وإن جادلوك فقل الله اعلم بما تعملون، الله يحم بينكم يوم القيمة فيما كنتم فية تختلفون﴾. [الحج ٦٨-٦٩].

وقوله تعالى:﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدي أو في ضلال مبين﴾. [سورة سبأ: ٢٤].

مع أن بطلاهم ظاهر وحجتهم داحضة.

ويلحق بهذا الأصل: تجنب أسلوب التحدي والتعسف في الحديث، وتعمد إيقاع الخصم في الإحراج، ولو كانت الحجة بينة والدليل دامغاً. فإن كسب القلوب مقدم على كسب المواقف وقد تفحم الخصم ولكنك لا تقنعه، وقد تسكته ولكنك لا تكسب تسليمه وإذعانه.

وأسلوب التحدي يمنع التسليم، ولو وجدت القناعة العقلية، كل ذلك يطلبه الإسلام من المسلم اللهم إلا في بعض الحالات الشاذة التي تحتاج إلى تغيير هذا النمط وذلك لإسكات الطرف الآخر، ولكنها حالات فردية لا تلغي القاعدة.

ثانياً: تقدير الخصم واحترامه:

حيث ينبغي في مجلس الحوار التأكيد على الاحترام المتبادل من الأطراف وإعطاء كل ذي حق حقه والاعتراف بمترلته ومقامه.

والرسول صلى الله عليه وسلم سلك خير دليل على تطبيق هذه القاعدة حيث أحسن وفادة نصارى نجران وعاملهم بالحسنى وحفظ لهم كرامتهم.

ثالثاً: ينبغي إظهار ما عند المحاور من حسنات:

فلا شك أن في كل حضارة من الحضارات بعض الأوجه المنيرة النافعة.

ومن الواجب أن نأخذ من هذه الحضارات الجانب الإيجابي دون السلبي، وهذا ما طبقه المسلمون.

فقد أخذوا من الفرس نظام الدواوين زمن الفاروق عمر، وأخذوا من اليونان بعض مناهج الفكر، وأخذوا من الرومان نظام جباية الضرائب وطبقوها على جمع الزكاة، وكذلك يجب أن لا نرفض الحضارة المعاصرة جملة وتفصيلاً بل علينا أن نأخذ منها ما يعيننا على أمر دنيانا دون أدنى حرج في ذلك.

فمن الثابت تاريخياً – كما سنذكر – أن الأوربيين كانوا في زمن ما قبل النهضة عالة على الحضارة الإسلامية ومن هنا وجب علينا أن نشكر لهم جهودهم في هذا المجال وأن ننبههم على سوءات هذه الحضارات وعوارها، والجانب المادي في

الحضارة الغربية هو الجانب الإيجابي فيها ومن هنا وجب على المسلمين الانتفاع بما لديهم من تقدم مادي وتكنولوجي ونشكر لهم ذلك .

وأما تاريخياً فإن الحضارات لا يمكن أن تقوم بمعزل عن بعضها فلابد من تعاون وتأثير وتأثر ومحاولة أن يأخذ اللاحق من السابق ما يستكمل به منظومته الحضارية دون حرج أو خجل من ذلك، وهذا ما يطلق عليه تدافع الحضارات وليس صدام الحضارات، وهذا الحوار والتدافع لا تقوم به الحضارات بل يقوم به الأفراد.

إننا نرى الآن قضية علاقة "الأنا: الحضارية" بـ "الآخر: الحضاري" واحدة من قضايا "أزمة الفكر" الإسلامي المعاصر..بينما هذه القضية لم تكن بالأمس – عندما قامت علاقة أسلافنا العظام بالحضارات الأخرى، هندية وفارسية وإغريقية.. لم تكن من قضايا "الأزمة" بل كانت من سمات "الصحة" ومظاهر "النهضة"؟ وما كان هذا الفارق بين حال ذات القضية اليوم وحال أسلافنا بالأمس.. لقد تفاعلوا مع "الآخر الحضاري" من موقع القوى الراشد المستقل، فكنت :"لمعدتهم الحضارية" .. إن جاز التعبير– القدرة على التمييز بين الصالح والفاسد، بين النافع والضار، بين الملائم وغير الملائم في مواريث الآخرين، فلم تكن في العلاقة "قضية مشكلة على الإطلاق".. أما نحن، فإننا نتعامل من موقع الضعيف المهزوم الذي تحالفت عليه تحديات: التخلف الموروث.. وتحديات: الاستلاب الحضاري الوافد في ركاب الغزاة.

والدعوة إلى الحوار بالتي هي أحسن مع الآخر من أولى الأوامر الإلهية.

فقد حفل القرآن الكريم بدعوة المسلمين إلى التسامح، وهو جانب مهم لإقامة الحوار وأوليات المسلم الداعية إلى دينه فلم يمنع المسلمين من البر بغير المسلمين ما داموا في سلم مع المسلمين وحسن صلة:

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديـاركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قـاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهـم ومـن يتولهـم فأولئك هم الظالمون﴾. [سورة الممتحنة : ٨]

وأمر الإسلام بالرفق في الدعوة إليه، وأمر بمناقشة المخالفين بالحسنى.

قال تعالى:﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هـي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾. [النحل : ١٢٥]

وقال:﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منـهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم إله واحد ونحن له مسـلمون﴾ [العنكبوت : ٤٦]

وبين الله للنبي صلى الله عليه وسلم أنه مكلف أن يبلـغ الدعـوة ويبشـر بالإسلام، وليس مكلفاً أن يحمل الناس عليها بالقوة.

قال تعالى:﴿فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمصيطر﴾.الغاشية : ٢١-٢٢

وقال: ﴿ أفأنت تكره النـاس حـتى يكونـوا مؤمنـين﴾ يونـس : ٩٩ .
وقال:﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ البقرة : ٢٥٦.

وقال:﴿ فإن أعرضوا فمـا أرسـلناك عليـهم ﴾ إن عليـك إلا البـلاغ) الشورى : ٤٨

وقال تعالى:﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبـد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقلـوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وأمر الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يجير المشرك إذا لجأ إليه واحتمى بـــه، وهذه سماحة ما بعدها سماحة:

﴿ وإن أحداً من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾[التوبة : ٦].

وأمر الله المسلمين بأن يفوا بعهودهم لمن عاهدوهم سواء أكـــانوا مـــن أهـــل الكتاب أم من المشركين.

قال تعالى:﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً﴾[الإسراء : ٤٣].

وقال:﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدهـــا وقـــد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون﴾[النحل : ٩١].

وقال:﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكـــم شـــيئاً ولم يظـــاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾ [التوبة : ٤]

من هذا يظهر لنا مدى حرص الإسلام على إرساء مبدأ الحوار والجدال بـــالتي هي أحسن وأيضاً مبدأ الوفاء بالعهد وعدم استعمال القوة إلا في أضيق الحدود، ولهذا فقد طبق الرسول هذه التوجيهات.

ففي صلح الحديبية:

اشترطت قريش على النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبيـــة شـــروطاً قاسية، منها أن من جاء من محمد إلى قريش لا ترده إلى محمد، ومن جاء إلى محمد بغير إذن وليه رده محمد.

وقبل النبي صلى الله عليه وسلم شرطهم الجائر، لحكمة رآها، وتـــبرم بعـــض الصحابة بالشروط، وما كادوا ينتهون من توقيع المعاهدة حتى جـــاء أول امتحـــان

للوفاء، إذ وصل مسلم من مكة اسمه أبو جندل بن سهيل يرسف في الحديد، فاراً من أذى قومه، وألح على الرسول في أن يضمه إليه، لكن الرسول سلمه لقريش وفاء بعهده فقال أبو جندل: إنهم سيعذبونني، فقال له صلى الله عليه وسلم: "اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم".

ثم وفد على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة أبو بصير عتبة بن أسيد، فرده، وقال له مثل ما قال لأبي جندل.

فلم يكن عجباً أن انبهر بسماحة الإسلام وتسامح المسلمين سكان البلاد المفتوحة، وأن انطلقت ألسنتهم بالثناء على المسلمين، لأنه رأوا من المسلمين سمواً في الأخلاق، ونبلاً في المعاملة، وسماحة لم يعهدوها من قبل حينما كان يحكمهم الفرس أو الروم، ولم يكن عجباً أن وجد المسلمون من هؤلاء السكان عوناً في فتوحهم الظافرة.

ميثاق أهل الذمة:

وقد أراد الفقهاء فيما بعد أن يضعوا دستوراً للعهود التي يعقدها الحكام المسلمون مع أهل الذمة، لا يتعداه المتعاهدون، وسنكتفي بمثال نتبين منه إلى أي مدى تسامح المشرعون من أئمة المسلمين مع الذميين.

جاء في العهد الذي وضعه الإمام الشافعي: [(١)]

" .. لك ولهم عليّ وعلى جميع المسلمين الأمان ما استقمت واستقاموا بجميع ما أخذنا عليكم، وذلك أن يجري عليكم حكم الإسلام، ولا حكم خلافه بحال يلزمكم، ولا يكون لكم أن تمتنعوا منه في شيء رأيناه نلزمكم به.

---

(١) نقلا من كتاب سماحة الإسلام ص ٢٥ وما بعدها .

وعلى أن أحدا منكم إن ذكر محمدا صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله عز وجل أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به، فقد برئت منه ذمة أمير المؤمنين، وذمة جميع المسلمين ونقض ما أعطى عليه الأمان، وحل لأمير المؤمنين ماله ودمه، كما تحل أموال أهل الحرب دماؤهم.

وعلى أن أحدا من رجالكم إن أصاب مسلمة بزنا، أو قطع الطريق على مسلم، أو فتن مسلما عن دينه، أو أعان المحاربين على المسلمين بقتال، أو بدلالة على عورة المسلمين أو إيواء لعيونهم، فقد نقض عهده، وأحل دمه وماله، وإن نال مسلما بما دون هذا في ماله أو عرضه، لزمه فيه الحكم.

وعلى أن نتبع أفعالكم في كل ما جرى بينكم وبين المسلم، فما كان لا يحل لمسلم مما لكم فعله رددناه، وعاقبناكم عليه، وذلك أن تبيعوا مسلما بيعا حراما من خمر أو خنزير أو دم أو ميته أو غيره، ونبطل البيع بينكم فيه، ونأخذ ثمنه منكم إن أعطاكموه، ولا نرده عليكم إن كان قائما، ونهريقه إن كان خمرا أو دما، أو نحرقه إن كان ميتة، وإن استهلكه لم نجعل عليه فيه شيئا ونعاقبكم عليه.

وعلى ألا تسقوه أو تطعموه محرما، أو تزوجوه بشهود منكم، أو بنكاح فاسد عندنا.

وما بايعتم به كافرا منكم أو من غيركم لم نتبعكم فيه، ولم نسألكم عنه ما تراضيتم به وإذا أراد البائع منكم أو المبتاع نقض البيع، وأتانا طالبا له، فإن كان منتقضا عندنا نقضناه، وإن كان جائزا أجزناه، إلا أنه إذا قبض البيع لم يرده لأنه بيع بين المشركين.

ومن جاءنا منكم أو من غيركم من أهل الكفر ليتحاكم أجريناكم على حكم الإسلام، ومن لم يأتنا لم نعرض لكم فيما بينكم وبينه.

وإذا قتلتم مسلما أو معاهدا منكم أو من غيركم خطأ فالدية على عـــاتقكم، كما تكون على عواتق المسلمين، وإن قتل منكم رجل بلا قرابة فالدية عليه في مالــه، وإذا قتل عمدا فعليه القصاص، إلا أن تشاء ورثة المقتول ديته فيأخذونها.

ومن سرق منكم فرفعه المسروق إلى الحاكم قطعه إذا سرق ما يجب فيه القطـع وغرم.

ومن وكان للمقذوف حد حد له، وإن لم يكن له حد عزر، حتى تكون أحكـام الإسلام جارية عليكم بهذه المعاني فيما سمينا وما لم نسم.

وأن يؤدي كل يافع، من أحرار رجالكم غير مغلوب على عقله، جزية رأســه دينارا في كل سنة، ولا يكون له أن يغيب عن بلده حتى يؤدي أو يقيم به من يؤديــه عنه.

ولا جزية على أبنائكم الصغار، ولا على صبي غير بالغ، ولا على مغلوب على عقله، ولا مملوك، ولا شيء عليكم في أموالكم سوى جزيتكم ما أقمتم في بلادكــم واختلفتم ببلاد المسلمين غير تجار.

وإن اختلفتم بتجارة — على أن تؤدوا من جميع تجارتكم العشر إلى المسلمين — فلكم دخول بلاد المسلمين إلا مكة، والمقام بجميع بلاد المســلمين كمــا شــئتم إلا الحجاز، فليس لكم المقام ببلد منها إلا ثلاث ليال حتى تظعنوا منه.

ولكم أن نمنعكم — وما حيل ملكه عندنا لكم — ممن أرادكم مــن مســلم أو غيره بظلم مما نمنع به أنفسنا وأموالنا، ونحل لكم فيه على ما جرى حكمنا عليه بمــا نحكم به في أموالنا.

وعليكم الوفاء بجميع ما أخذناه عليكم، وألا تغشوا مســلما، ولا تظــاهروا عدوهم عليهم بقول أو فعل.

ولكم عهد الله وميثاقه وذمة فلان أمير المؤمنين وذمة المسلمين بالوفاء لكم، فإن غيرتم أو بدلتم فذمة الله ثم ذمة فلان أمير المؤمنين، والمسلمين بريئة منكم.

ومن غاب عن كتابنا ممن أعطيناه ما فيه فرضية إذا بلغه فهذه الشروط لازمة له ولنا ومن لم يرض نبذنا إليه.

قام هذا العهد على عدة أسس:

١- المسلمون مقيدون في صلتهم بالذميين بأحكام الإسلام، فلا مجال للهوى والاعتساف.

٢- تبرأ ذمة المسلمين من عهدهم للذميين إن خان الذميون عهدهم.

ولهذه الخيانة مظاهر شتى، منها أن يتهجم الذميون على القرآن الكريم أو النبي صلى الله عليه وسلم أو الدين الإسلامي، لأن هذا التهجم إنذار بالشر وبقطع الآصرة، وعداء للمسالمين المتسامحين، وللمسلمين إذن الحق في حرب الخائنين واستحلال أموالهم، لأنهم مثل المحاربين الذين تحل دماؤهم وأموالهم، بل هم أولى بالقسوة، لأنهم يعيشون بين المسلمين فخطرهم أشد.

ومنها أن يعتدي الذميون على أعراض المسلمات، أو يقطعوا الطرق أو يردوا مسلما عن دينه، أو يساعدوا أعداء المسلمين المحاربين لهم بالمال أو بالتجسس أو بالإيواء.

وهم في هذه الأحوال أهل غدر وخيانة، ولم يراعوا عهدهم الذي عاهدوه، هم أعداء ألداء يتسترون بالولاء، فمن واجب الحكومة أن تضرب على أيديهم لتكفل للشعب الأمن والسلام والطمأنينة.

٣- حينما يتعامل الذمي مع مسلم، فعلى الذمي ألا يجرئه على مخالفة دينه، بأن يتغفله أو يستهين بالإسلام، فإذا كان فيما جرى بينهما ما يحرمه الإسلام أبطله الحاكم وعاقب عليه.

٤- وإن كان بين ذمي وذمي فلا شأن للحاكم المسلم به، سواء أوافق الإسلام أم خالفه، فإذا اختصم أحدهما إلى الحاكم المسلم كان الإسلام هو الفيصل، فيقر ما يجيزه، ويبطل ما يبطله.

٥- وأهل الذمة يعاقبون على القتل كما يعاقب المسلمون، فإذا قتلوا مسلما أو ذميا خطأ فالدية عليهم كما تكون على المسلمين إذا قتلوا، والقصاص جزاء القتل العمد.

ويعاقبون على السرقة بقطع اليد كما يعاقب المسلمون، ويحدون على القذف أو يعزرون كما يحد المسلمون أو يعزرون، لأنهم جزء من الشعب لابد أن يخضع للقانون العام الذي تطبقه الحكومة.

٦- وعلى الذميين أداء جزية وهي ضريبة مخففة لقاء منافع كثيرة تكفلها الدولة لهم، ولقاء الزكاة التي تجبيها الحكومة من المسلمين، وعليهم العشر في التجارة.

٧- والدولة الإسلامية مكلفة أن تحمي الذميين وأموالهم من عدوان المسلمين وغيرهم، ومكلفة أن تدرأ عنهم الظلم الذي تدرؤه عن المسلمين لأنهم بعض الرعية.

٨- والذميون مكلفون أن يفوا بالعهد الذي عقدوه فإن نقضوه برئت ذمة المسلمين من عهدهم.

وهذه أسس عادلة سمحة تكفل للذميين أن يعيشوا أحرار العقيدة والنفـــس في بلاد المسلمين، وأن يطمئنوا على أرواحهم وأموالهم، بل إنها تكفل للذميـــين والمسلمين أن يعيشوا في الوطن الواحد أخوة متعاونين متحدين.

٤ - روافد انتقال حضارة الإسلام إلى الغرب

الطريق الأول الأندلس واللقاء الحضاري بين الإسلام والغرب:

إن المدخل الطبيعي لتناول أثر الحضارة العربية والإسلامية على الحضارة الغربية هو بلا شك يتمثل في عرض موجز عن دخول تلك الحضارة إلى الأندلس مع العرب الفاتحين الذين منحوا أهل الأندلس من الحرية ما لم يعهدوه قبل دخول الإسلام، ولابد أن أولئك الأسبان – الذين دخلوا الإسلام – لم يندموا على فراقهم دينهم الأول وانتقالهم إلى العقيدة الجديدة، فقد تحسنت ظروف حياتهم من الناحيتين القانونية والاجتماعية، إذ أنهم نقلوا من الرق إلى الحرية" ويقدم لنا المؤرخ الألماني يوسف أشباخ وصفا لبلاد الأندلس في عهد الموحدين، فيقول: "وأطلقوا حرية العلوم والفنون، ولما وقفوا على أسرار الحضارة العربية والتي أخذت تنهض من جديد غدوا من حماتها، وعنوا بتشجيع بعض أصناف العلوم ونشرها، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة وفي نفس الوقت في جميع أنحاء المملكة، وغمرت الشعوب"[1].

ونبدأ من البدايات الأولى للحركة الثقافية والعلمية في بلاد الأندلس وتأتي البداية الجادة مع عبدالرحمن بن معاوية (١٣٨هـ/ ٧٧٥م – ١٧٢هـ/ ٧٨٨م) وكان من أهل العلم، وعلى سيرة جميلة من العدل، وبذلك أتيحت في عصره للأسبان الظروف المواتية للاتصال بالثقافة الإسلامية الشرقية اتصالا منظما. وظهرت البوادر الفلسفية الأولى على يد ابن مسرة (٢٧٠هـ/٨٨٣م- ٣١٩هـ/٩٣١م) وقد كان من أهل العقل بما قالت به المعتزلة، وكان الناس في ابن مسرة فرقتان: فرقة تبلغ به مبلغ الإمامة في العلم والزهد، وفرقة تطعن عليه بالبدع لما ظهر من كلامه في الوعد

---

[1] تاريخ الأندلس ترجمة محمد عنان ج٢/٢٥١.

والوعيد وبخروجه عن العلوم المعلومة بأرض الأندلس الجارية على مذهب التقليد والتسليم.

وتنمو الحركة الثقافية بكل أبعادها نموا عظيما في ولاية الحكم المستنصر (٣٥٠هـ/ ٩٦١م - ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م) وقد كان حسن السيرة، جامعا للعلوم محبا لها، مكرما لأهلها، وجمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هناك، وذلك بإرساله له من الأقطار، وشرائه لها بأغلى الأثمان ونفق على ذلك الشيء الكثير، وقد شهد بذلك واحد من المستشرقين فيقول دوزي **Dozy** .

لم يحكم أسبانيا يوما من الأيام حاكم على هذه الدرجة من العلم، نعم أن كل من جاءوا قبله من أمراء الأندلس وخلفائها كانوا رجالا ذوي علم وولع بجميع الكتب، ولكن أحدا منهم لم يطلب الكتب القيمة والنادرة بهذه الهمة، فكان له في القاهرة وبغداد ودمشق والإسكندرية عمال مكلفون باستنساخ كل الكتب القيمة، قديمة كانت أو حديثة، وكان قصره حافلا بالكتب وأهلها، حتى بدا وكأنه مصنع لا يرى فيه إلا ناسخون ومجلدون ومزخرفون يحلون الكتب بالمنمنمات والرسوم الجملية، وكان فهرست مكتبته يقع في أربع وأربعين كراسة في كل منها عشرون ورقة - على قول - وخمسون على قول آخر، ليس بها إلا أسماء الدواوين لا غيرن وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر، وقد قدر بعض المؤرخين عدد مجلداتها بما يربوا على أربعمائة ألف كتاب، قرأها الحكم كلها وعلق على معظمها، وكان يكتب في أول كل مجلدة أو في آخرها نسب المؤلف ومولده، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن.

وأطلق الحكم للرياضيين وللفلكيين الحرية في إذاعة علومهم في الناس، ومن هنا ظهرت إلى الوجود مدرسة مسلمة المجريطي في مدريد، ومسلمة هذا هو الذي أدخل رسائل إخوان الصفا في الأندلس ولقيت دراسة الطب عناية عظيمة بفضل أبي القاسم الزهراوي، وكذلك نهضت دراسة النبات على يد سليمان بن جلجل.

وإذا كانت الحركة العلمية والفكرية قد نشطت هذا النشاط، فإن ذلك لم يكن مستطاعا إلا بفضل روح التسامح التي سرت في هذه البلاد، ويقدم لنا كافين رايلي صورة للروح السمحة التي سادت بلاد الأندلس وكانت من أهم العوامل التي أدت إلى الاستقرار وانتقال التيارات الحضارية إلى أوربا. فيقول: "وبنهاية القرن الحادي عشر كان المجتمع الإسلامي قد أصبح أشد استقرارا وتحضرا من أوربا وأخرج فلاسفة ورياضيين وفلكيين وأطباء وفنانين بنفس الحماس الذي كانت أوربا الغربية تخرج به الجنود، ونقل خيالة الصحراء إلى أسبانيا تقنية زراعية جعلت الأرض تزدهر على نحو لم نرى مثله من قبل ربما حتى اليوم، وأصبح نسل الخيالة أساتذة طب في أولى كليات الطب في أوربا، وعلم فلاسفة الغرب أفلاطون وأرسطو وعلم تجارهم وبحارتهم الأوروبيين الرياضة ومسك الدفاتر والسفر والبحر، بالاختصار نجد أن الحضارة الإسلامية التي دمرها الصليبيون في بيت المقدس كانت أرقى وأجنح إلى السلم من غزاها".

الطريق الثاني : الحروب الصليبية :

من المفارقات الغربية أنه في الوقت الذي كانت يتعامل الغرب مع الإسلام بالسيف والرمح كانت الحضارة الإسلامية تمد الجانب الغربي بكل ألوان والمعرفة وق تجلى هذا الأمر في الحروب الصليبية .

وإذا كانت الحرب الصليبية على الحضارة الإسلامية بكل بشاعتها تعد واحدا من المعابر التي عبرت عليها الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا، فإن الحروب الصليبية في المغرب العربي كانت من أكبر المعابر التي عبرت عليها تلك الحضارة إلى أوربا، "أنطلق" روجردي هوتفيل" النورمندي لاستعادة صقلية ١٠٦٠م ودخل الفونسو السادس طليطلة عام ١٠٨٥م ودخل غوفوي دي بيون القدس عام ١٠٩٩م وقد أدى فتح هذه الجبهات الثلاث إلى اتصال وثيق مع المسلمين فأخذت صورة الإسلام تتشكل وتصبح بالتدريج أكثر وضوحا ودقة.

الطريق الثالث : البعثات العلمية إلى البلاد الإسلامية :

أضف إلى هذين المعبرين معابر أكثر رحابة تلك هي الجامعات التي انتشرت في العواصم العربية لأقاليم الدولة الإسلامية والتي تردد عليها طلاب الشرق والغرب على حد سواء "قد سبق العالم الإسلامي الغرب بقرن أو ما يقاربه، إذ نمت مجموعة من الجامعات العظيمة في عدد من المراكز في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وفي المساجد، فأضاء نورها ونور الجامعات خارج العالم الإسلامي، مسافات بعيدة، واجتذب إليها الطلاب من الشرق والغرب، وكانت قرطبة بصفة خاصة تحتوي أعدادا كبيرة من الطلاب المسيحيين، وكان تأثير الفلسفة العربية الوافدة واضحا كل الوضوح على جامعات باريس واكسفورد وشمال إيطاليا وعلى الفكر الغربي الأوروبي عامة.

الطريق الرابع : حركة الترجمة من العربية إلى اللغات الأوربية :

ومن الطرق التي سلكتها العلوم العربية إلى أوربا من خلال إيطاليا وسيفتوس طريق جزيرة صقلية ومدرسة سالرنو في جنوب إيطاليان وذلك منذ القرن العاشر حيث عنى ملوك النور مانديون أمثال فردريك الثاني بتشجيع علماء العرب كما عنوا بالحث على ترجمة مؤلفاتهم، ويأتي قسطنطين الأفريقي (١٠١٥-١٠٨٧) الذي ألم إلماما تاما بلغات الشرق وطاف بمصر وسوريا والعراق والهند والحبشة وأحاط فيها بعلومها، وقد قدم العلم العربي إلى أوربا.

وهكذا بدأت حركة النقل والترجمة من العربية إلى اللاتينية، ونشطت حركة الترجمة، منذ القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر، وحصلت أوربا على عدد كبير من المخطوطات العربية من المكتبات التي لم تتعرض للدمار والحريق، كما كان الحال في بغداد وترجم التراث العربي إلى عدد غير قليل من اللغات الأوروبية.

وقد قام المستشرقون أيضا بترجمة كثير من المؤلفات العربية والإسلامية غير أن عملهم كان مشوبا بنقص كبير حيث لا يخفى سوء النية التي كانت تقود هؤلاء المستشرقين .

بنقص كبير حيث لا يخفى سوء النية التي كانت تقود هؤلاء المستشرقين .

هذه هي أهم روافد انتقال الحضارة الإسلامية إلى الغرب مضافا إليها حركة التجارة التي كانت متبادلة بين الشرق والغرب .

كانت الفائدة متبادلة بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة اليونانية حوار مستوى الندية نحو غاية واحدة وهي الحقيقة التي يمكن الوصول إليها بالفعل والوحي.

وفي نهاية العصر الذهبي للحضارة الإسلامية في القرن السابع الهجري الذي يقابل القرن الثالث عشر الميلادي بدأت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية مباشرة أو عبر العبرية من طليطلة ، وفي بادو ، وبالرمو ، وفي القسطنطينية بل كانت اللغة العربية هي لغة البلاط عند فردريك الثاني والذي كتب له ابن سبعين (المسائل الصقلية) ردا على أسئلته الفلسفية حول خلق العالم وخلود النفس التي لم يستطع أحد من الفلاسفة الغربيين الرد عليها [١].

وكان آثار ترجمة العلم العربي أن نشأت العلوم الغربية الحديثة الرياضية الحساب والهندسة والفلك والموسيقى والطبيعة والفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة والنبات والحيوان والمعادن .

فترجم " الجبر والمقابلة " للخوارزمي ، و " المناظر " للحسن بن الهيثم ، و " رسائل ابن حيان " في الكيمياء .

وظل الطب الإسلامي يدرس في لغرب حتى القرن السابع عشر بعد ترجمة " الحاوي " للرازي ، و " القانوني " لابن سينا و " الكليات " لابن رشد لقد أعطت الحضارة الإسلامية أساسا جديدا للعلوم الطبيعية وهو اتفاق نظام العقل مع نظام الطبيعة فاتحدث الإنسان الثلاثة : العقل والوحي والطبيعة وكان هذا النسق الجديد هو العامل الرئيسي وراء النهضة الأوربية الحديثة بعد تحرير العقل من كل مظاهر الخرافة[٢] بل إن الإصلاح الديني في الغرب عند " مارتن " في القرن الخامس عشر إنما تم بناء على نموج الحضارة العربية الإسلامية . حيث الكتاب وحده مصدر العقيدة والشريعة وليس أقوال أباء الكنيسة ، وأن لكل مجتهد الحق في التفسير وليس الكنيسة

(١) ص ١٧ من بحث صراع الحضارات .
(٢) ص ١٨ من بحث صراع الحضارات

وحدها ، وأنه لأواسطة بين العبد وربه . وكلها مبادئ من الحضارة الإسلامية وقـــد رغب " لوثر " في تعلم العربية لمعرفة التراث الإسلامي من أصوله الأولى .وظل هـــذا النموذج هو أيضا نموذج الإصلاح عند " اسبينوزا " حيث رفض تسلط الأحبـــار والدولة الثيوقراطية التي يحكم فيها الملوك باسم الله وأثبت تحريف التـوراة ورفـض عقيدة شعب الله المختار وأرض الميعاد.

ومن خلال احتكاك الأوربيين بعلماء الإسلام ومفكريه اكتشف اللاتين صـورة أخرى للإسلام صورة كانت مغايرة إلى حد بارز لمفاهيمهم الدينية المتميزة في هـــذا المجال،

٥ - صور من الإبداعات الحضارية في الإسلام

عنى الإسلام بالعلم ودعا إليه، وحث المسلمين على طلبه ولو بالصين. ونزلت أولى آيات القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم متضمنة للعلم: "اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم". العلق : ١ - ٥ ووضع هذا المعنى في كثير من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.وجعل الله سبحانه العلم سببا لخلافة آدم في الأرض:

وعنى النبي صلى الله عليه وسلم بالعلم حتى أنه جعل ثمن عتق الأسير أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة كما تحكى كتب السيرة.

ودعا القرآن الكريم إلى تدبر مظاهر الكون وأسراره، كما حث على الارتحال والسفر لطلب العلم ثم تعليمه: "فلولا تفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم" التوبة : ١٣٢ .

واتبع المسلمون هدى القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم فأقبلوا على العلم يغترفون من مناهله وينشرونه بين الناس. وبدأت عنايتهم في أول الأمر بالقرآن الكريم فجمعوه في عهد أبي بكر، ثم نقلوا منه نسخا وزعوها في الأمصار في عهد عثمان بن عفان.

ولم يكن لبني أمية دور كبير في العناية بالثقافة والعلوم ولو أنه ظهرت علامات أو مقدمات تنبئ بنهضة ثقافية قادمة، وقد حدث الازدهار الثقافي فعلا في العصر العباسي.

وكان للأجناس المختلفة في الدولة الإسلامية دورها في الحركة الثقافية. وقد ظهر فضل العرب بشكل واضح في الشعر وظلت الثقافة في العالم الإسلامي ذات طابع عربي وذات صلة وثيقة بالحياة والتقاليد العربية.

وكان الفرس من العناصر البارزة في الحركة الثقافية. وقد ساعدهم ظروف تأسيس الدولة العباسية وتنظيمها واختيار موقع العاصمة على أن يلعبوا دورا كبيرا في هذا المجال كما كانت التقاليد والحضارة الفارسية لا تزال غضة لم يمضي عليها الزمن.

وكان لأهل الذمة من النصارى واليهود والصابئة دورهم ولاسيما في حركة الترجمة التي كان لها أثرها في تطوير الثقافة الإسلامية.

ولقد سبق القول أن الإسلام قد بعث العرب بعثا جديدا حيث فاحيا من جديد بحث الإنسان وراء العلم فلئن كان الإغريق أبا الطريقة العلمية، فلقد كان العربي أبا روحيا لها وشريكا له في أبوتها. غير أن القيمة التي كانت تمتاز بها الحضارة الإسلامية أنها نظرية وعملية بخلاف الإغريق الذين لم يتعدوا النظريات فقط دون العمليات فمن العرب، وليس عن اللاتين تلقى العالم العصري تلك المنحة من النور والقوة" وتنطلق تعاليم الإسلام النظرية والعلمية لتصنع أمة لها من المقومات ما مكنها من تحقيق السيادة والريادة منذ الخطوة الأولى للدعوة الإسلامية فمن "يرى المسلمين وهم مجتمعون صفوفا للصلاة ويؤدون ركعاتها وسجداتها في تناسق مدهش وفي نظام ووقار، لا يمكن أن يغفل ما كان لهذه الصلاة المنظمة من قيمة تربوية في نفوس المسلمين أول الأمر.

فإذا كانت الحضارة تتحقق في ظل الاستقرار والأمن والأمان، فإن ذلك لا يتحقق إلا بأسلوب تربوي يضم الداعي قبل من توجه له الدعوة وهذا ما يؤكده "ولز Wells حيث يقول تعليقا على خطبة الرسول في حجة الوداع "بيد أنها أسست في

العالم تقاليد عظيمة، للتعامل العادل الكريم، وأنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ وقد أنشأت مجتمعا أكثر تحررا من أي مجتمع آخر سبقه، مما غمر الدنيا في قسوة وظلم اجتماعي".

ويقول "توينبي": "ولا جرم أن عقيدة دينية توفق التوفيق كله تحت تأثير فضائلها الذاتية في الفوز بولاء الناس لها، عقيدة لا يستند بناؤها على أهواء تلك النظم السياسية التي تنشد استغلال العقيدة لتحقيق غايات تجافي مبادئها ليعتبر انتصارها الروحاني أعجب مثال يبين أنه وأن حلت الكوارث بالأديان العالمية الأخرى التي سعت إلى تحقيق غايات سياسية، إلا أن الإسلام عكسها. لم يؤثر فيه هذا الاتجاه، وهذا ما يبديه استقراء اتجاهه السياسي منذ عهد الرسول نفسه ثم في عهد خلفائه من بعده.. وهكذا تبينت بمرور الأجيال والأحقاب عظم قدر الرسالة الروحية التي أبلغها محمد إلى البشرية" [١].

وقد تحقق ذلك كله بفضل حرص الدعوة الإسلامية على تأكيد معاني الرحمة والتعاطف والإخاء والمساواة انطلاقا من توحيد الخالق جل وعلا" فهذا الإلحاح على تبادل الرفق والرعاية بين الناس في الحياة اليومية، إنما هو واجد من فضائل الإسلام الكبرى، بيد أنه ليس الفضيلة الوحيدة فيه، ويعادل هذا في الأهمية التوحيد الذي لا هوادة فيه، والذي يتجرد من كل ما جاء به اليهود من استئثار بالله، وهو توحيد يدعمه القرآن الكريم. وكان الإسلام منذ البداية قاطعا مانعا إلى حد بعيد لكل الإضافات والتفصيلات اللاهوتية التي أربكت المسيحية وفرقت كلمتها وغطت بالدخان على يسوع، وكان مصدر قوته الثالث تحديده الدقيق لطرائق الصلاة والعبادة وبيانه الصريح عن المغزى المعرفي المحدود للأهمية المنوطة بمكة، وأقفل دون

(١) الإسلام ليس رسالة روحية فقط بل هو نظام شامل لأمور الدنيا والآخرة .

كل المؤمنين باب كل قربان ولم يترك سام خياط مفتوحا ينفذ منه كاهن القربان في الغفران القديم ويعود بذلك إلى مسرح العقيدة، لم تكن مجرد عقيدة جديدة جوتما " في أيام حياة" جوتاما "ولكنها وضعت بحيث تظل على حالها دون تغير، ولا يزال للإسلام حتى يومنا هذا فقهاء معلمون ووعاظ، ولكن ليس له كهنة ولا قساوسة، وكان دينا مليئا بروح الرفق والسماحة والأخوة، وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم، كان دين فطرة تحوى ما للصحراء من عواطف الفروسية، وكان يتوجه بمناشدتها المباشرة إلى أشبع الفطر والغالبة على تكوين الرجال[١].

وسط هذه البيئة بكل أبعادها الطبيعية والاجتماعية أحرز المجتمع الإسلامي تقدما أدهش المؤرخين والكتاب، يقول جب Gibb لم يحرز المساواة بين الأجيال المختلفة، بصرف النظر عن الطبقات البشرية وتنوع الفرص وإمكانيات للعمل، لقد تجلت من أوضاع الجالية الإسلامية الكبيرة في أفريقيا والهند وإندونيسيا، والجالية الإسلامية الصغيرة في اليابان، قدرة الإسلام على إذابة الاختلافات في الأجيال والتقاليد التي لا تزول على مر القرون على مدار التاريخ، فإذا كان لابد من إحلال عاطفة التعاون مكان الصراع والخصومة بين مجتمعي الشرق والغرب الكبيرين فلابد في ذلك من الاستعانة بالإسلام والاعتماد عليه في تحقيق هذا المطلوب.

بهذا الرصد لحركة المد الإسلامي بخصائصه الروحية الأخلاقية يمكننا القول بأنه توافرت أعظم مقومات الحضارة من سلطان ثابت الأركان، "إذ أن هذا السلطان يعد أساس النظام الاجتماعي والنشاط التجاري، وكذلك العمود الفقري للرخاء القومي كله، ورفاهية المجتمع، ومن ثم وجدت سائر فروع المعرفة تربة خصبة لها في رقعة

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية لتويني نقلا من كتاب دراسات فلسفية . للدكتور سعيد مراد.

الدولة الإسلامية الشاسعة، وكلما ازدادت هذه الدولة اتساعا كلما نشطت العلوم ووجدت أجواء صالحة لازدهارها.

وبدأت حركة الإبداع قوية نشطة في هذا الجو النفسي العام الذي حقق الأمن والطمأنينة والأمان لكل إنسان على ارض الإسلام، وتفتق العقل العربي المسلم يكشف المجهول ويعيد صياغة أبواب العلم المدونة في التراث الإنساني، "والإنسان يقضي العجب من الهمة التي أقدم بها المسلمون على البحث، وإذا كان هناك أمم تساوت هي والعرب في ذلك، فإنك لا تجد أمة فاقت العرب على ما يحتمل، والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همهم إلى إنشاء مسجد وإقامة مدرسة فيها، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة، ومنها المدارس العشرون التي روي "بنيامين التطيلي المتوفى سنة ١١٧٣م أنه شاهدها في الإسكندرية، وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة .. الخ على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية، ولك ما يساعد على البحث العلمي.

وإذا كنا لا نستطيع في مثل هذا البحث الإتيان على كل المظاهر الحضارية التي اتسعت دائرتها في ظل الإسلام فإننا نجد لزاماً علينا أن نعرض لبعض النماذج التي تعبر عن شكل ثمار هذه الحركة العلمية الحضارية النشطة، فإن كان العرب قد بدأوا بدراسة التراث اليوناني في مطلع القرن الثاني للهجرة واستمرت الدراسة والترجمة أكثر من قرن، فاستوعب علماء العرب ما جاءهم من التراث اليوناني علما وفلسفة واجتماعا، وأضافوا إلى ما جاءهم من العلم والمعرفة وبرز عدد كبير منهم في مختلف شئون المعرفة كالفلسفة والفلك والطبيعة، (الفيزياء) والرياضيات والهندسة والكيمياء، وقدم العرب تراثا جديدا وغزيرا، فقد فجروا لبنات التراث اليوناني وصيروها أجرا، وجعلوها جزءا من أساس حضارتهم الشامخة، فالعرب حافظوا على

التراث اليوناني، وكان هذا بعض فضلهم غير أن فضلهم الكبير يتجلى فيما طوروا من أساليب البحث العلمي مثل اعتمادهم الطرق التجريبية في الوصول إلى الحقائق العلمية هذه الطرق التي أغفلها اليونان مكتفين بالاستدلال النظري، على هذا النحو بدأ المفكرون العرب والمسلمون يصيغون نظريات علمية لا عن طريق التأمل العقلي المحض أو التصورات العقلية الصرفة إنما من خلال منهج علمي دقيق، ونستطيع أن نقدم بعض خصائص التفكير العلمي كما عرفها الفكر العلمي:

خطوات المنهج العلمي عند المسلمين:

(أ) المنهج الشكي وأثره على الغرب:

يقول الجاحظ (ت٢٢٥هـ/٨٦٩م): "تعلم الشك في المشكوك فيه تعلما، فلو لم يكن ذلك لا تعرف التوقف ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه، والعوام أقل شكوكا من الخواص لأنهم لا يتوقفون عن التصديق ولا يرتابون بأنفسهم، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق[1]. فالشك مرحلة من مراحل الوصول إلى الحقيقة.

ولذا أنكر علماء الأصول التقليد وبينوا فساده، يقول القاضي عبدالجبار: "ومما يدل على فساد التقليد أن المقلد كما يجوز أن يصيب، فقد يجوز أن يخطأ، وليس في جبلته ولا في أحواله ما يقتضي كونه مصيبا، فيجب كما لا يحل للإنسان أن يعتقد الشيء تبخيتا لأنه لا يأمن كونه خطأ فكذلك القول في التقليد[2].

وقد كان أبو هاشم البصري يرى أن الشك ضروري لكل إنسان فقد صرح بأن أول واجب يلزم المكلف هو الشك، لأن النظر إذا لم يسبقه شك كان تحصيل حاصل، ولقد نبه الحسن بن الهيثم في مقدمة الشكوك على بطليموس، "الحق مطلوب

---

(١) توفيق الطويل ، في تراثنا العربي صـ٧.

(٢) المغني جـ١٢ صـ١٤٢.

لذاته، فليس يعني طالبه غير وجوده، ووجود الحق صعب، والطريق إليه وعر، والحقائق منغمسة في الشبهات وحسن الظن بالعلماء في طباع جميع الناس، فالناظر في كتب العلماء إذا استرسل مع طبعه، وجعل غرضه فهم ما ذكروه وغاية ما أوردوه حصلت الحقائق عنده من المعاني التي قصدوا لها، والغايات التي أشاروا إليها، وما عصم الله العلماء من الزلل ولا حمى عملهم من التقصير والخلل، ولو كان ذلك كذلك لما اختلف العلماء في شيء من العلوم، لا تفرقت آراؤهم في شيء من حقائق الأمور، والوجود بخلاف ذلك، فطالب الحق ليس هو الناظر في كتب المتقدمين، المسترسل مع طبعه في حسن الظن بهم، بل طالب الحق هو المتهم لظنه فيهم المتوقف فيما فهمه عنهم، المتبع الحجة والبرهان، لا قول القائل الذي هو الإنسان، المخصوص في جبلته بضروب الخلل والنقصان. [١]

والإمام الغزالي قد فصل قضية الشك وكيف يصل الإنسان من خلاله إلى اليقين، ذكر ذلك في أكثر من كتاب وخاصة كتاب المنقذ من الضلال.

ولم يعد خافيا استفادة علماء الغرب من هذا المنهج وخاصة ديكارت الذي يطلق عليه أبو الفلسفة الحديثة. حيث اعتبر مؤسس المذهب العقلي في الفكر الحديث. [٢]

---

(١) الشكوك : للحسن بن الهيثم صـ ٣ . دار الكتاب .

(٢) وجد بعض الباحثين العرب أثناء إطلاعه على مكتبة ديكارت . وجد نسخة من كتاب المنقذ في الضلال للإمام الغزالي وقد علق ديكارت على منهج الغزالي قائلا : يوضع هذا في منهجنا وأنظر تفصيل ذلك في كتاب نظرية الشك بين الغزالي وديكارت . للدكتور محمود زقزوق.

الاستقراء والتجربة عند المسلمين وأثرهما على بيكون:

لقد كان لدى المسلمين عناية كبيرة بالاستقراء والتجربة يؤكد ذلك ابن الهيثم فيقولك "ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات، وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر من نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء".

هكذا يضع ذلك العالم قواعد وأصول المنهج التجريبي القائم على تقدير دور الحواس في المعرفة العلمية، ولعل ذلك ما دفع كمال الدين الفارسي إلى امتداح هذه الطريقة في كتابه تنقيح المناظر، حيث يقول: "فوجدت برد اليقين مما فيه مع ما لم أحصه من الفوائد واللطائف والغرائب، مستنده إلى تجارب صحيحة، واعتبارات مجردة بآلات هندسية ورصدية، وقياسات مؤلفة من مقدمات صادقة".

فإذا ما أضفنا إلى هذه الأقوال ما قاله جابر بن حيان أكبر علماء الكيمياء في العالم العربي والإسلامي، لتأكد ما ذهبنا إليه يقول جابر: "يجب أن تعلم أننا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط دون ما سمعناه، أو قيل لنا وقرأناه، بعد أن امتحناه وجربناه، فما صح أوردناه، وما بطل رفضناه، وما استخرجنا نحن أيضا وقايسناه على أقوال هؤلاء القوم[١]. وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مبلغ الحرص الزائد لتحري الدقة في منهج بحثه.

---

[١] كتاب الخواص الكبير ، ص ٢٣٢.

بعد ذلك الوصف المفصل لبعض وقاعد وأصول المنهج التجريبي عند علماء المسلمين تتهافت كل ادعاءات التي تقلل من أهمية ما توصل إليه علماء الإسلام، وتأتي شهادة المنصفين من مؤرخي الحضارة الغربية لتؤكد ما نحن بصدده، يقول "فوردين كجوري" أحد مؤرخي العلم في كتابه " تاريخ الفيزياء" إن علماء العرب والمسلمين هم أول من بدأ ودافع بكل جدارة عن المنهج التجريبي، إن هذا المنهج يعتبر بحق مفخرة من مفاخرهم فهم أول من أدرك فائدته وأهميته للعلوم الطبيعية، ويجيء على قمة رواد هذا المنهج ابن الهيثم[١]. وتؤكد سجريد هونكه هذا الإنصاف فتقول: "إن الحضارة العربية المبتكرة، لم تأخذ عن الحضارة الإغريقية أو الحضارة الهندية إلا بقدر ما أخذ طاليس أو فيثاغورس من الحضارتين البابلية والمصرية، لقد طور العرب بتجاربهم وأبحاثهم العلمية ما أخذوه من مادة خام عن الإغريق، وشكلوه تشكيلا جديدا فالعرب في الواقع هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمي الحق القائم على التجربة[٢].

ولم تقف سيجريد هونكة عند هذا الشهادة وإنما ذهبت إلى ابعد من ذلك فتقول: "إن العرب لم ينقذوا الحضارة الإغريقية من الزوال ونظموها ورتبوها ثم أهدوها إلى الغرب، فحسب، إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر، والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع، وبالإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلم التي سرق أغلبها ونسب لآخرين، قدم العرب أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت أمام الغرب طريقة لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم[٣].

---

(١) أعلام الفيزياء في الإسلام.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب.

(٣) المصدر نفسه.

ويأتي سيديو لكي يضيف إلى ما قاله غيره من المنصفين شهادة أخرى، فيقول: "وليس للعرب مجرد نقل كتب اليونان حرفيا كما زعم بعض الفرنج فأنا لا نشكر علماء بغداد على حفظهم كتب علماء الإسكندرية فقط بل ما اخترعوه في هذه الفنون.

وإذا كنا نستطيع حصر ما قدمه العرب في العلوم والآداب والفنون والفلسفة لأن إسهاماتهم فوق مستوى الحصر، يقول جوزيف شاخت: "إن عدد المواضيع التي يجب أن يتضمنها حساب إسهامات الإسلام ضمن إنجازات الإنسانية هو نظريا عدد لا يحصى تقريبا".

لذلك سنقدم بعض الأمثلة التي تساعد على توضيح ما نهدف إليه، وتتزاحم الأسماء بين علماء في تخصصات مختلفة في العلوم الطبيعية والدراسات الإنسانية.

ونجد أبو الريحان البيروني يطل علينا من النوافذ الواسعة للحضارة الإنسانية فتشهد له بالعلم الدقيق والنظر الثاقب والمقارنة الموضوعية، يقول ديورانت: "وكان أول مؤلفاته الكبرى رسالة علمية عميقة تعرف باسم "الآثار الباقية في التقاويم والأعياد عند الفرس وأهل الشام واليونان، واليهود والمسيحيين والصابئين، والزردشتيين والعرب" والكتاب دراسة نزيهة إلى درجة غير مألوفة، مبرأة إلى أقصى حد من الأحقاد الدينية.

لقد كان موقفه موقف العالم صاحب النظرة الموضوعية في البحث العلمي، النقادة للروايات المتواترة والنصوص (بما فيها نصوص الإنجيل) المدقق النزيه ذي الضمير الحي في أحكامه" [١].

---

(١) تاريخ الحضارة لديورانت .

أما جابر بن حيان فعلي الرغم من اطلاعه على مؤلفات أرسطو إلا انه رفض المنهج اليوناني في العلم ذلك المنهج القائم على الاستنباط والتأمل العقلي، حيث كانت فلسفة جابر شأنه شأن جميع المسلمين أرسطية معدلة، ونظريته في تكوين المادة هي نفسها في جوانبها الهامة كلها نظرية أرسطو، ولم تكن عبقرية جابر ترضى له بالاستسلام للتأمل العقيم المنقطع الصلة بالواقع المشاهد، فآثر – كما آثر كثيرون من المسلمين الذين جاءوا بعده – العمل على سطح الخيال، فجاءت آراؤه – على وجه الإجمال – واضحة ودقيقة، والإضافات التي أضافها إلى الكيمياء هي التي سوغت بحق –لقيمتها – أن ينعت باسم جابر لأنه هو الذي جبر العلم – أي أعاد تنظيمه – وأقامه على أساس ثابت.

الطب في الحضارة الإسلامية :

وإذا كان البيروني وجابر قد شادا مع غيرهم من المسلمين صرح الكيمياء في العصور الوسطى، فإننا نجد آخرين قد شادوا صرح الطب " الإكلينيكي" والنفسي والعلاجي" كما سيأتي بعد قليل وكان المسلمون أول من أنشئوا مخازن الأدوية والصيدليات، وهم الذين أنشئوا أول مدرسة للصيدلة، وكتبوا الرسائل العظيمة في علم الأقراباذين، وكان الأطباء المسلمون عظيمي التحمس في دعوقم إلى الاستحمام وخاصة عند الإصابات بالحميات، وإلى استخدام حمام البخار، ولا يكاد الطب الحديث يزيد شيئا على ما وصفوه من العلاج للجدري والحصبة، وقد استخدموا التخدير بالاستنشاق في بعض العمليات الجراحية، ويشهد علماء الغرب بقيمة ما قدمه "الرازي" في مجال الطب، لقد كان الرازي بإجماع الآراء أعظم الأطباء المسلمين وأعظم علماء الطب السريري "الكلينيكي" في العصور الوسطى، وقد علقت في مدرسة الطب بجامعة باريس صورتان لطبيبين مسلمين هما: "الرازي وابن سينا".

ومن أشهر أطباء المسلمين والذين ضاع صيتهم في الغرب

١ - موفق الدين البغدادي (ت ٦٢٩ هـ ١٢٣١م) .

نستطيع أن نقدم لوحة فنية رائعة رسمها أحد الأطباء العرب لا بالألوان والأصباغ وإنما بمعيار علمي يقوم على نقد الآراء السابقة والوصول إلى آراء علمية طريفة من خلال الملاحظة والتجربة فقد قدم الطبيب العربي موفق الدين نقدا لجالينوس في كتابه "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" فيقول: "فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية إيصالها وتناسبها وأوضاعها، ما أخذنا علما لا نستفيده من الكتب، إما أنها سكتت عنه، أو لا يعني لفظها بالدلالة عليه، أو يكون ما شهدناه مخالفا لما قيل فيها، والحس أقوى دليلا من السمع، فإن جالينوس وإن كان في الدرجة العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه فإن الحس أصدق منه"[١].

بالإضافة إلى هذه النظرية النقدية فإنه ينحى منحى تجديدي ابتكاري إبداعي أي أنه يكشف حقائق علمية لم تكن معروفة من قبل، بل لعلها قد استقرت في أذهان السابقين على خلاف حقيقتها، مثل ذلك قوله: "إن الكل قد طبقوا على أنه (عظم الفك الأسفل) عظمان بمفصل وثيق عند الحنك. وقولنا الكل نعني به هنا جالينوس وحده (وشراحه) فإنه هو باشر التشريح بنفسه، وجعله دأبه ونصب عينيه، وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا والباقي لم يخرج إلى لسان العرب، والذي شاهدناه من هذا العضو أنه عظم واحد ليس في مفصل ولا درز أصلا اعتبرناه (فحصناه) ما شاء الله من المرات في أشخاص كثيرة تزيد على ألفي جمجمة بأصناف

(١) توفيق الطويل. المصدر السابق ص ٣٠. ولعله يقصد بالحس المشاهدة، وانظر أيضا: الدور العربي في التراث العلمي العالمي، للدكتور محمد شاكر ص ١٥٩ ج١.

من الاعتبارات، فلم نجده إلا عظما واحدا من كل وجه، ثم أننا استعنا بجماعة متفرقة (فريق من العلماء) اعتبروه بحضرتنا فلم يزيدوا على ما شـــهدناه منـــه وحكينـــاه، وكذلك في أشياء أخرى غير هذه، ولئن مكنتنا المقادير بالمساعدة وضعنا مقالـــة في ذلك نحكي بها ما شاهدناه وما علمناه من كتب جالينوس، ثم إني اعتبرت العظم أيضا بمقابر (أبو صير القديمة) في مصر فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصـــل ولا درز، ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة إذا تقادم عليها الزمن أن تظهر وتتفـــرق، وهذا الفك الأسفل لا يوجد في جميع أحواله إلا قطعة واحدة[1].

هذا مبلغ الدقة في البحث العلمي على ما نعرف من أخبار العلـــم في ذلـــك الزمن وما سبقه.

٢ - ابن النفيس (٦٨٧هـ - ١٢٨٨م) .

فإذا ما عرضنا لمكانة طبيب آخر يعترف الغربيون في القليل مـــن مؤلفـــاتهم بفضله في مجال الطب، ذلك هو ابن النفيس[2] وكان يلقب بابن سينا الثاني الذي جمع بين فروع العلم المختلفة كما جاء في تراث الإسلام "فلقد كـــان الطـــب والعلـــوم والفلسفة معارف متلازمة بعضها مع بعض، وكذلك كان علم الكـــلام والشـــريعة يشكلان زمرة واحدة ولم يخل الأمر من أشخاص كانوا يجمعون بين جميع هذه الفروع من أمثال ابن النفيس الذي اكتشف عن طريق الاستدلال النظري الدورة الدمويـــة الصغرى، قبل وليم هارفلي بثلاثة قرون.

---

(١) المصدر نفسه صـ ١٩٢.

(٢) لابن النفيس كتب طبية منها: (الكامل في الطب) (الشامل في الصناعة الطبية) (وتشـريح القانون) الذي ترجم إلى اللاتينية.

ومن هنا فقد نبغ في العالم الإسلامي كثير من العلماء الذين اثروا المعرفة البشرية في شتى المجالات، ويكفينا أن نذكر فيما يلي بعض نماذج من هؤلاء العلماء الذي ذاع صيتهم وانتشر علمهم إلى خارج العالم الإسلامي وبخاصة في أوربا.

٣ - من أعظم أطباء العرب أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٢٥١هـ - ٣١٠هـ) (٨٦٥-٩٢٥م) وينب إلى الري مسقط رأسه.

ومن أهم كتبه في الكيمياء (كتاب الأسرار) وقد نقل إلى اللاتينية وصار مصدرا رئيسيا في الكيمياء إلى أن ظهرت مؤلفات جابر بن حيان في القرن الثامن الهجري (١٤م).

(الكتاب المنصوري) من عشرة أجزاء، نقل إلى اللاتينية وعرف باسم Liber Almonsoris ونشر لأول مرة في ميلان ما بين سنة ١٤٨٠ و ١٤٨٩م، ونقل منه حديثا فصول إلى الفرنسية والألمانية.

(رسالة الجدري) والحصبة: وتعد أول من كتب في هذا المجال، وقد نقلت أولا إلى اللاتينية في البندقية ثم نقلت إلى لغات أخرى.

(كتاب الحاوي) وهو أهم مؤلفاته وهو موسوعة طبية، ونقل إلى اللاتينية في سنة ١٢٧٩م في صقلية، وطبعت ترجمته مرارا بين سنتي ١٤٨٦و ١٥٤٣م تحت اسم continens وصدرت الطبعة الخامسة منه في البندقية. وكان له أثر كبير على الغرب اللاتيني.

٤ - علي بن العباس: (ت٣٨٤هـ-٩٩٤م) ومن أهم تأليفه الكتاب الملكي الذي وضعه لعضد الدولة (حكم من ٣٦٧-٣٧٢ه) وسمى أيضا كامل الصناعة الطبية وعمت دراسته إلى أن حل محله كتاب القانون لابن سينا.

٥ - ابن سينا (٣٧٠-٤٣٠/٩٨٠-١٠٣٧م) أبو علي الحسين بن عبدالله، ولد في بخارى وكان أشهر اسم بعد الرازي في تاريخ الطب العربي، وكان يلقب الشيخ الرئيس، وجمع بين الطب والفلسفة والفقه والشعر، ومن شعره قصيده في النفس وهبوطها في الجسد جاء فيها:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تحجب وتمنع

ومن أشهر كتبه التي نقلت إلى اللغات الأوربية:

(القانون في الطب) نقل إلى اللاتينية، في القرن السادس الهجري (١٢م). وصار الكتاب المدرسي لتعلم الطب في أوربا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وظهر منه ١٥ طبعة لاتينية، وواحدة عبرية، ونقل بعضه حديثا إلى الإنجليزية، ويشتمل القسم الخاص بالأدوية به على حوالي ٦٧٠ دواء، وقد ظل الكتاب المرجع الأساسي في الطب في أوربا مدة أطول من أي كتاب آخر.

٦ - علي بن عيسى: ولد في القرن الخامس الهجري (١١م) ويعد أشهر الأطباء العيون العرب وله ٣٢كتابا في علم الرمد أفضلها تذكرة الكحالين، وقد وصف فيها ١٣٠ مرضا من أمراض العيون، ونقلت إلى العبرية مرة وإلى اللاتينية مرتين.

٧ - ابن جزلة (ت٤٩٣ه/١١٠٠م) وقد صنف موجزا طبيا عنوانه "تقويم الأبدان في تدبير الإنسان" ورتب فيه الأمراض على غرار ترتيب النجوم الفلكية ونقل إلى اللاتينية في ستراسبورغ سنة ١٥٣٢م.

ولقد حدث في أوربا في عصور لاحقة ولا سيما في القرن السادس الهجري (١٢م) حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وغيرها من اللغات الأوربية،

نقلت بعضلها المؤلفات العربية في شتى فروع الفلسفة والعلم والأدب إلى الأوربيين، وكان لهذه الحركة أكبر الأثر ف بعض روح النهضة في أوربا.

وبعد .. فهذا غيض من فيض ونقطة من محيط لنماذج من روائع حضارتنا الإسلامية التي كانت مصدر إشعاع أوربا في فترات متعاقبة .

وقد أثرت هذه الروائع في قيام الحضارة الغربية إن في المنهج سواء التجريبي أو العقلي أو النقدي وإن في العلوم سواء كانت فلكية أو كيميائية أو طبية . ومن هنا يحق لنا القول أننا أصحاب حضارة رائدة أثرت في غيرها أخذته من سابقتها .

الفصل الثالث

مستقبل الحوار الحضاري بين الإسلام والغرب

التفاعل الحضاري ضرورة :

لما بدأ عصر الفتوحات وأنتشر الإسلام كذلك لدى الشعوب المفتوحة حدث أكبر حوار حضاري بين الحضارة الإسلامية الناشئة والحضارات القديمة يونانية ورومانية غربا وفارسية وهندية شرقا.

وقام النصاري العرب في الشام والرهاو نصيبين وفي بغداد في ديوان الحكمة الذي اسسه المأمون . بأكبر حركة ترجمة عرفها التاريخ القديم . فقد كان المترجمون عربا لغة ، ونصارى دينا ومسلمين ثقافة كان ولاءهم للثقافة العربية ففضلوا التراث اليوناني في العلم والحكمة إلى اللغة العربية .

ولا توجد ثقافة غالبة عظمت ثقافات الشعوب المغلوبة قدر الثقافة العربية ولا توجد ثقافة غالبة عظمت ثقافات الشعوب المغلوبة قدر الثقافة العربية الإسلامية . فأرسطو هو المعلم الأول ، والفارابي هو المعلم الثاني ، وأفلاطون صاحب الأيد والنور ، وسقراط أحكم البشر ، وأفلوطين الشيخ اليوناني ، وجالينوس أفضل المتقدمين والمتأخرين ، وأبقراط فاضل الأطباء ، وهرمس الحكيم ، وابن الهيثم بطليموس الثاني.

إن من يتصفح آي القرآن الكريم يلحظ أنه يتحدث عن التعددية باعتبارها آية من آيات الله – سبحانه وتعالى – وسنة من سننه في خلقه، فيقول:﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين﴾[سورة الروم : ٢٢].

وأن هذا "الاختلاف" الذي جعله الله سنة ومظهرا للتعددية، يقتضي رفض "التبعية" أو "الهيمنة" برغم وحدة الحضارة للبشر أجمعين:

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾. [سورة هود : ١١٨ - ١١٩] .

ولقد قال المفسرون لقوله تعالى:

﴿ ولذلك خلقهم﴾. إن معناها: "وللاختلاف خلقهم" .. ففي الاختلاف والتمايز: التنوع، والغنى، والتنافس في استباق الخيرات..

وكذلك الحال في ميدان الحضارات.. فعلى مر التاريخ عرفت البشرية التعددية في الحضارات مع الالتقاء والتبادل والتفاعل فيما هو مشترك إنساني عام بين هذه الحضارات.. فمع الخصوصيات الحضارية، التي تتميز بها كل حضارة عن غيرها هناك ما هو مشترك إنساني عام بينها جميعا ، وخاصة في المعارف والعلوم التي تشترك في ثبات الموضوع ووحدة المناهج والحقائق والقوانين.

فالعلاقة بين "الأنا: الحضارية" وبين " الآخر: الحضاري" يجب أن يحكمها هذا القانون.. التفاعل والتبادل الحضاري، لا التبعية – بزعم الوحدة الحضارية – ولا الانغلاق والعزلة – بزعم الاختلاف الكامل والكي _ .. فكما أن التعددية في الأمم هي سنة من سنن الله في الخلق، كذلك التعددية في الحضارات لأن هذا التمايز الحضاري هو واحد من أهم أسباب هذه التعددية بين الأمم.كما أن " التعارف" .. الذي أمرنا الله به ليكون طابع العلاقات ين الأمم والشعوب.. يقتضي العدول عن القطيعة، ورفض "الصراع"..

تفاعل الحضارات:

مما لا شك فيه أن الحضارات منذ العصور القديمة في تفاعل وصراع دائمين، وإن كانت الوسائل التي استخدمت، أو الطريقة التي انتهجت في ذلك التفاعل

مقصودة، أم عفوية، سياسية عسكرية استعمارية، أو اقتصادية مصلحية، وهي في ذلك تختلف من حضارة إلى حضارة، ومن جيل إلى جيل.

إن التفاعل الحضاري بين الأمم والشعوب أمر لابد من التسليم به، وأن القول بأن عقلية شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، أو جنس من الأجناس، تتميز عن غيرها فيه كثير من التجني، صحيح هناك فوارق فردية بين الأفراد إلا أننا في المجموع العام للإنسان الكلي أو للعقل الجمعي لا نجد الفوارق بنفس الحدة بين الفوارق الفردية، يقول أحد العلماء.

" لقد اعتاد مؤرخو الفلسفة أن يبدءوا قصتهم باليونان، وأن الهنود الذين يعتقدون أنهم مخترعو الفلسفة، والصينيين الذي يعتقدون أنهم بلغوا بها حد الكمال، أن هؤلاء وأولئك يسخرون من ضيق عقولنا وتعصبنا، ولعلنا كلنا مخطئون في ظننا لأننا نجد بين أقدم القطع المتناثرة التي خلفها لنا المصريون الأقدمون كتابات تمت بصلة بعيدة إلى الفلسفة الأخلاقية، ولقد كانت حكمة المصريين مضرب المثل عند اليونان الذين كانوا يعتقدون أنهم أطفال بالقياس إلى هذا الشعب القديم[1].

فكما أن الأمم تتصارع في ميادين الحرب والسياسة والتفوق في ميادين العلوم والفنون، فكذلك تتصارع في ميدان الثقافة والحضارة، وهذا أمر طبيعي تماما لا غرابة فيه، بل إنه دليل على ديناميكية الحضارة، ذلك أنه من خصائص المبتكرات الحضارية في أي ميدان أنها لا تنحصر في المواطن الاجتماعية التي تظهر فيها، بل تخترق الحدود لتسري إلى مناطق غيرها، ويكون مدى انتشارها تابعا لقوة نفاذها من جهة، واستعداد غيرها لتقبلها من جهة أخرى، وهذا الفعل الانتشاري هو ميزة من أهم مميزات العناصر الحضارية.

---

(١) قصة الحضارة ، ج١ صـ ١٨٦.

إذا كيف تم هذا التفاعل الحضاري؟ وما هي الطرق والمسالك التي اتبعها؟ ومع اعتبار أن قوة هذا التفاعل والاتصال تتحكم فيه إلى حد بعيد الظروف الجغرافية المختلفة، فالتاريخ يحدثنا عن مجتمعات عاشت في الجبال أو الأودية أو الصحاري أو الأدغال أو المناطق الجليدية أو الجزر النائية، فكانت هذه المجتمعات منغلقة غالبا على نفسها، ونادرا ما تسمح الظروف باتصالها وتفاعلها حضاريا مع شعوب أخرى، وهذا الأمر على مستوى الحضارات القديمة، أما في العصر الحديث فقد خفت حدته إلى حد التلاشي.

ولقد كانت هناك سبل متعددة حصل بواسطتها تواصل الحضارات وتفاعلها.والتي منها: الغزوات والحروب والفتوح، فإذا غزا مجتمع مجتمعا آخر، حدث بين المجتمعين تبادل وتفاعل يتسعان حسب المدة التي يستغرقها النزاع، فإذا كان الغزو عارضا وقصيرا، كغزوات الروم والفرس، جاء أثره ضئيلا ومحدودا، أما إذا نتج عنه تغلب مجتمع على آخر، واحتلال موطنه واستقراره فيه، واختلاطه وتزاوجه، فلا شك أن التفاعل الحضاري سيكون ضخما وواسعا.

ولقد أشار العلامة ابن خلدون إلى ذلك في العلاقات بين الغالب والمغلوب، فقد قال في الفصل الثالث والعشرين: "إن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله، والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها، وانقادت إليه، أما النظرة بالكمال فيما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به، من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل بها اعتقادا فانحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء... وتأمل في هذا سر قولهم: العامة على دين الملك، فإنه من بابه إذ الملك

غالب لمن تحته، والرعية مقتدون به، لاعتقاد الكمال فيه، اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم. [1]

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الغالب القوي بخشونة عيشه وشجاعته وعصبيته وعقيدته الدينية، عندما يسيطر على مجتمع متنعم – والترف والتنعم من توابع الحضارة – يبادر إلى تقليده في معايشه، وإلى أخذ مظاهر الترف والحضارة عنه، وقد عبر ابن خلدون عن ذلك بقوله: "وأهل الدول ابدأ يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم، فأحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون" أي أن الغالب تأثر بالمغلوب على حد قول ابن خلدون"في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها" [2] لأن الأمم في سيرها الطبيعي تنتقل من البداوة إلى الحضارة.

على أنه من الممكن جدا أن يحدث العكس، بحيث يؤثر الغالب في المغلوب حضاريا وأمثلة ذلك كثيرة في التاريخ، كحملات الإسكندر التي أدت إلى غرس الحضارة اليونانية في أصقاع العالم القديم، وهو ما يعرف بالثقافة "الهيلينية" هذا بالإضافة إلى حركة الاستعمار الغربي في العصر الحديث لدول إفريقيا وآسيا، حيث كان تأثير ثقافتها وحضارتها كبيرا في جميع الدول التي سيطر عليها ذلك الاستعمار إلا أنها مع ذلك لم تستطع محو هوية هذه البلاد خاصة البلاد الإسلامية التي ما إن انتهى الاحتلال حتى ظهرت الصحوة الإسلامية بقوة .

ومن الطرق التي يمكن بواسطتها التأثر أو التأثير الحضاري الانتقال الفردي من مجتمع إلى آخر، على اختلاف حاجياتهم ومهماتهم وأغراضهم، فهناك الرحالون الذين يجوبون البلاد من المشرق إلى المغرب، سواء أكان ذلك للسياحة أم للتجارة، أو الذين

(١) المقدمة صـ ١٤٨ .

(٢) نفس المصدر صـ ١٣٨ .

يرحلون لأجل العلم سواء أكانوا طلابا أو معلمين، أو مهاجرين اضطرهم ظــــروف الحياة إلى الانتقال والاستقرار في مجتمعات أخرى، إن هذا الاستقرار أو الترحال سواء أكان عابرا أم دائما، لابد وأن يحدث التأثير أو التأثر الحضاري في الثقافة والعـــادات والتقاليد، وأمثلة ذلك كثيرة في التاريخ، نذكر منها خروج الأسر الصليبية من شـــق بقاع الغرب، واستقرارهم في مدن الشام، وما حدث وراء ذلك من تفاعل حضـــاري في صالح الصليبيين ، الذين تأثروا بعادات ومثل وأخلاق المسلمين، ونقلوها إلى بلادهم بعد خروجهم من ديار المسلمين.

إذا ليس هناك حضارة على وجه الأرض لم تقتبس ولم تأخذ من الحضـــارات الأخرى، لأن ما نراه اليوم من تقدم وتطور تكنولوجي ما هو إلا وليد مزيــــج مـــن حضارات العالم منذ أقدم العصور، فكل أمة في أيديولوجيتـــها أو في تركيبـــها أو في تفكيرها ما هي إلا حصيلة تفاعل بين عدة ثقافات وعدة أعـــراق وعـــدة وحـــدات حضارية، والعناصر الخارجية ضرورة حتمية لا يستغني عنها أي تـــراث مـــهما سمـــا وارتفع، إنها تمتزج بالثقافة الذاتية لتكون وإياها محصلة واحدة تختلف من تـــراث إلى آخر.

ومعنى ذلك أن التأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية، والأفكـــار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب، إنما هي ظاهرة حتمية وضروريـــة وصحيـــة وطبيعية، هذا الاقتباس لابد منه قبل الإبداع، فلا إبداع دون اقتباس، إن الإغريــــق اقتبسوا قل أن يبدعوا ، وتقلبوا في مهاد ثقافية متباينة، ولقد تفتقت قرائحهم في آسيا الصغرى، وجزر الأرخبيل، وصقلية، والإسكندرية، وتخوم العالم القديم، وكلها أصقاع كان لأمم العالم القديم فيها قوة حضارية نافذة، في العراق والشام ومصـــر، وآســـيا الصغرى، فلماذا لم يأت التراث اليوناني القديم مقتبسا، عن تلك الحضارات، فلـــولا

تراكمات تلك الثقافات وتلك الحضارات التي امتزجت في فكر واحد، واستفاد منه اليونان، لما استطاع اليونان أن يكونوا التراث الذي تركوه، فإن تلك العقول اليونانية لم تنحصر في مكان واحد.

ـ فالشرق هو الموطن الأول للحضارات والأديان في الدنيا، والغرب مدين له في حضارته بالشيء الكثير، (١) وعليه فهو وليده وحفيده وسبطه، ولا ضير عليه في ذلك مادام قد دمج العناصر المستوردة من الشرق بالنواة الأصلية لنهضته، حتى لقد صارت هذه العناصر جزءا منه لا يتجزأ، وخرج من ذلك كله بتركيبة جديدة مليئة بالإبداع، ولكن مهما فاق الابن أباه أو التلميذ أستاذه فهو مدين له بالفضل والوراثة، والأيام دول، والحضارات أخذ وعطاء وميراث. وهكذا فلكي يكون النقل منتجا يجب أن يخضع لعملية انصهار وتفاعل تجري ضمن حركة الصراع الداخلي في المجتمع، أي جب أن يكون وليد العوامل الداخلية والقوى الفاعلة في هذا المجتمع، منصهرا فيها متفاعلا معها، يجب أن يكون تعبيرا عن حركة التطور في هذا المجتمع أو ذاك، وعن حاجات هذا التطور وأهدافه ومراميه، وإلا كان مصطنعا زائغا.

بل إنه مما تجدر الإشارة إليه أن الحضارة العربية الإسلامية كانت أقل حضارات الدنيا اقتباسا ونقلا عن غيرها، ذلك أنه كان للقوم قبل الإسلام حضارتهم الخاصة، وتقدمهم وعلومهم وفكرهم، وما زالت آثارهم تشهد بذلك، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنه عندما جاء الإسلام جاء معه بدستور شامل كامل لمقتضيات الحياة وجوانبها المختلفة، من مثل وأخلاق وقيم، تكفل لهم البقاء حتى ولو لم تمتزج حضارتهم بحضارات العالم القديم، تلك المثل والأخلاق لم تعرفها الحضارات السابقة

---

(١) هذا يدحض كلام أولئك المتعصبين الذين قسموا الشعوب إلى أجناس تتفاوت في القدرة على النظر العقلي وتجنوا على الجنس السامي بقولهم (ما يكون لنا أن نتلمس عند الجنس السامي دروسا فلسفية) كما يزعم رينان وغيره أنظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية . للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ١١ .

ولا اللاحقة ككل متكامل، ثم نشروها في الدنيا وأخذ منها الغرب اليوم ما هو ضروري حياته وحضارته المادية فنجحوا وأفلحوا.

فمن غير المعقول إذا القول بأن الحضارة اليونانية نتاج العبقرية اليونانية الفذة المنفردة، حيث أن القول بذلك فيه مغالطة مرجعها التعصب والعنصرية والجهل بتاريخ الحضارات.

وبنفس المنطق فإن الادعاء بأن الحضارة العربية الإسلامية، لم تتأثر بالثقافات والحضارات المتقدمة عليها زمانا كالحضارة اليونانية والفارسية والهندية، إذ من يقول بذلك لا يستند إلى دليل تاريخي أو علمي كما أنه بتأثير العاطفة الدينية يجعل الإسلام دينا منعزلا – عن غير قصد – والحقيقة أن الإسلام لم يكن يوما قيدا على حرية الفكر، ولم يغلق أبواب الثقافات الأخرى، بل كانت دعوته واضحة في معرفة ثقافات الأمم والشعوب ولا أدل على ذلك من أن القرآن نفسه اشتمل على ألفاظ معربة لم تكن لها أصول عربية كالقساطس والسجيل ، والإستبرق.

وعلى نفس القدر من المغالطة القول بأن الحضارة الأوروبية الحديثة لم تتأثر بتيار الحضارة العربية والإسلامية الذي كان يمثل دورة حضارية في العصور الوسطى المظلمة في أوربا.

لهذا نقول: إن التواصل الحضاري أشبه بموجات البحر المتلاحقة الموجة تلو الأخرى، في تلاحم يجعل الفصل بين هذه الموجات أمرا مستحيلا."لا يمكن أن تكون هناك بالمرة أية صورة من صورة الحضارة ما لم يكن هناك إيمان بوجه عام، كأن يعقب مثلا الربيع الشتاء بصورة لا تتغير"[1]. وليس في مقدورنا أو في مقدور الباحث المحقق

---

[1] مجلة المنار عدد ٤٢ يوليو ١٩٨٨م.

المدقق أن يتعرض لأي مرحلة من مراحل الحضارة الإنسانية، إلا أن يجد صيغة تتناسب مع التواصل الحضاري بين الأمم والشعوب، بل وبين الأجيال المتعاقبة والمتلاحقة.

ولقد حاول مؤرخو الحضارة التعرف على المنابع الحضارية الأولى عبر عصور التاريخ الإنساني، وأجدني على قناعة تامة بأنه ليس في مقدورنا أن نحدد على وجه الدقة أول حضارة عرفتها البشرية وعلى أي أرض ظهرت، وما هي العوامل التي ساعدت على قيامها، يساعدني في ذلك مفهوم الحضارة. "إذ أن الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجية الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء[١].

هكذا نجد أن الحضارة حركة مستمرة في الزمان والمكان إلا أن قانون الديمومة الذي يجب أن يسود يدفعها بعد لحظة الميلاد إلى تخطي حدود المكان الزمان لكي تصبح تجددا مستمرا لحركة الإنسان والمجتمع، وعلى هذا لا تكون البداية معروفة على وجه الدقة، وإنما منهجية البحث في هذا الموضوع تفترض بداية للحضارة على سبيل الترجيح بحضارة الشرق القديم[٢].

تلك الحضارة التي كانت تمتاز بطابع عام هو الطابع الأخلاقي المرتبط إلى درجة بعيدة بما تستلزمه متطلبات الحياة الإنسانية بأبعادها الوجدانية والعملية، ومهما يكن من وصف هذه الحضارة فإنها جزء هام من التجارب الإنسانية إذ أنه من المهم جدا "أن نعترف بالحقيقة التاريخية التي تنطلق بأن الانتقال العظيم إنما هو ثمرة

---

[١] قصة الحضارة ، ول ديوارانت، ترجمة زكي نجيب محمور ج١، ص ٣.

[٢] مجلة المنار.

التجارب البشرية ونتيجتها، وأن القوة المحركة للتقدم الإنساني، منذ ذلك الوقت كانت هي الخبرة البشرية، وأن خبرة الإنسان نفسه كانت وستبقى دائما أعظم معلم له[١]. لذلك فليس من حق أحد أن يطعن في ما قدمه الشرق القديم من خبرات وتجارب للحضارة الإنسانية أو مجرد التقليل من أهميته بحجة أن هذه الخبرات كانت ثمرة من ثمرات المعاناة اليومية لإنسان ذلك العصر إذ أن المدنية الغربية الحديثة التي أدهشت إنسان هذا العصر إنما ترتد إلى أصولها الأولى من حياة الإنسان في الشرق القديم في زمن يرجع عهده إلى ما قبل بداية التاريخ العبري بأكثر من ألفي سنة[٢]. وقد أمدتنا هذه الحقبة الزمنية بالإضافة إلى أصول الشعور الخلقي فصولا لها قيمتها من التاريخ الاجتماعي[٣].

ومما لا شك فيه وبحكم الاتصال والتواصل بين الأمم والشعوب فقد انتقلت تلك التيارات الثقافية بكل عناصرها المتفاعلة إلى بلاد اليونان، باعتبار أن الحضارة اليونانية هي الحلقة الأولى من حلقات الحضارة الغربية، هذا ما أثبته مؤرخو العلم، يقول جورج سارتون: "ربما أننا نعني أولا وقبل كل شيء بأصول حضارتنا نحن، فسوف نهتم في هذا الفصل والذي يليه بحضارتي الشرق الأدنى القديم، أي حضارتي مصر وبلاد ما وراء النهرين، لما لهما من أثر عميق على شعوب البحر المتوسط

ويمكن من خلال هذا العرض أن نستخلص عدة ملاحظات:

---

(١) فجر الضمير. هنري برستيد ص ٤٢٩ ترجمة سليم حسن.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) لمعرفة أثر الشرق على الحضارة الغربية أنظر . فلاسفة الشرق لتوملين . ترجمة عبد الحميد سليم ، وكتاب : فجر الضمير ، وكتاب إعلام الفلاسفة لهنري توماس ، قصة الحضارة لديورانت ، والفلسفة الشرقية للدكتور غلاب وكتاب تطور الفكر والدين في مصر لبرستيد ، مصر الفرعونية لأحمد فخري.

الأولى: منها: أن التأثير عادة يسرى من الحضارة الأقـــوى والأرقـــى إلى الحضـــارة الأضعف والأكثر تخلفا، وليس المقصود هنا بالقوة هو القوة العسكرية وكـثـرة العدد وإعداد الجيوش، بل القوة المقصودة هي التقدم الحضـــاري والرقـــي في وسائل الحياة المختلفة المادية والمعنوية، ولعل أوضح مثال لذلك هجوم التـــتر على مناطق العالم الإسلامي وتحطيمه، غير أن هذه القبائل البربرية المتوحشة مـا كادت تستقر في ديار المسلمين، وتتلمس معاني الحضارة حـــتى تـــأثرت بهـــا وانتهجت سبلها، وتتبعت مسيرها، فكـــون هـــؤلاء المغـــول إمبراطوريتـــهم الحضارية في بلاد السند واصبحوا بعد تلاقحهم بالحضارة الإسلامية من أعظـم المدافعين عنها.

الثانية: هي أن لقاء الحضارات لا يؤدي إلى تأثير من جانب واحد فحسب، فليســـت آية حضارة مهما كانت متخلفة عديمة التأثير في حضارة أخرى أسبق وأرقـــى منها، فالتتر أنفسهم الذين تحضروا بحضارة الإسلام لم يعدموا بأن يكون لهـــم أدنى تأثير حضاري في الشعوب الإسلامية.

الثالثة: أن الحضارات عندما تتواصل لا تسري بمجموعها من جانب إلى جانب، بـــل تسري بعض عناصرها قبل البعض فوسائل الحضارة التي تنسجم مـــع طبيعـــة الشعوب المغلوبة والأقل رقيا، تلك الوسائل تكون أسرع من سواها انتقـــالا.. ولاحظ أن المنتجات والوسائل الحضارية المادية والتقنية والفنون أســـرع مـــن سواها من عقائد ومبادئ.

ومن أبلغ الأمثلة على التواصل الحضاري وأن ضرورة هي حالة المســـلمين في التعاطي مع الحضارة البشرية حيث لم يقف جهد المسلمين عند حـــد النظـــر والاجتهاد الشخصي بل عمدوا إلى التعرف على ما أحرزته البشرية من تقـــدم

في مجالات الثقافة المختلفة، وذلك ليلموا بما عرفه من كان قبلهم من الشعوب الأخرى حتى يتسنى لهم أن يضيفوا الجديد إلى ما سبق التوصل إليه، ولذلك تزداد المعرفة الإنسانية وتتطور إذ الحكمة ضالة المسلم.

وكان من أهم وسائلهم إلى ذلك ترجمة الكتب التي تركها من سبقهم من الشعوب إلى اللغة العربية، والحق أن الترجمة إلى العربية بدأت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، إذ كان يكلف بعض صحابته بتعلم اللغات الأخرى حتى يترجموا الكتب التي ترد إليه من أقطار غير عربية.

واستمرت حركة الترجمة في العصر الأموي ولكن دون عناية كبيرة أو خطة منظمة.

أما في العصر العباسي فقد ازدهرت ازدهارا كبيرا ولا سيما في عهد المأمون واستمرت في تقدم واضطراد حتى أواسط القرن الثالث الهجري.[١]

وكان من مظاهر العناية بالترجمة تشجيع المترجمين وإجزال العطاء لهم، والبحث عن المخطوطات القديمة وبذل الكثير من المال في سبيل الحصول عليها، وإرسال الوفود والسفارات لجلبها من البلاد التي يعتقد وجودها فيها مثل بيزنطة بل كان أحيانا ما يشترط بعض الولاة في معاهداتهم مع بلاد أجنبية أن يقدموا لهم كتبا معينة من المخطوطات المحفوظة لديهم وبهذا فقد تمت ترجمة كثير من كتب اليونان أمثال جالينوس وأبقراط وديسفوريدس ومجموعها حوالي خمسين كتابا، وكتاب السياسة لأفلاطون، والمقولات والخلقيات والطبيعيات لأرسطو.

(١) الفهرست لابن النديم ص ٣٣٩ .

ويقال إن المأمون كان يعطي ابن اسحق زنة ما يترجمه من الكتب ذهبـــا، وأن بني شاكر وكانوا من المهتمين بالترجمة كانوا يدفعون له ولزملائه نحو خمسمائة دينار في الشهر ثمن ما يقومون بترجمته.

وكان من أوائل المترجمين في مجال الرياضيات والفلك الحجاج بن يوسف بـــن مطر، وكان من مدرسة حران وذاع صيته فيما بين ســـنتي ١٧٠ة ٢١٨هـ (٧٨٦- ٨٣٣م) وتنسب إليه الترجمة الأولى لأصول الهندسة لإقليدس وإحـــدى الترجمـــات الأولى لكتاب الجسطي لبطليموس.

وممن اضطلع بالترجمة في هذا المجال أيضا ثابت بن قرة وأبناؤه ولقـــوا رعايـــة خاصة من الخليفة المعتضد. وكان ثابت من صابئة حران ومن ثم عنى هـــو وأبنـــاؤه بالعلوم الرياضية والفلكية، وإليهم ينسب نقل كثير من كتب اليونان في الرياضيـــات والفلك مثل مؤلفات أرشميدس (ت سنة ٢١٢ق.م). وإبلونيوس (ولد حوالي ســـنة ٢٦٢ق.م) وتنقيح ترجمة إقليدس.

وهكذا صار العالم الإسلامي على معرفة بآراء أفلاطـــون وأرســـطو وعلـــم جالينوس وابقراط وديسقوريدس وبطليموس وأرشميدس وأبلونيـــوس بالإضافـــة إلى حكمة الهنود وآداب الفرس.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كثيرا من مؤلفات هؤلاء العلماء فقدت فيما بعد، ولم تحفظ إلا بفضل ترجماتها العربية، كما هي الحال بسبعة من كتب جـــالينوس في علـــم التشريح وكتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه عبدالله بن المقفع عن اللغة البهلوية، وكـــان أصلا منقولا عن اللغة السنسكريتية.

وبفضل حركة الترجمة دخل في اللغة العربية كثير من الكلمات المعربة يتضح من بعضها تناول العرب لعلوم جديدة، ومنها: جغرافيا وفلسفة وإسطرلاب وأثير وأكسير، وإبريز ومغناطيس وأرغن.

ثم جاء بعد عصر الترجمة والاقتباس عصر ابتكار: إذ أخذ علماء العرب يمحصون آراء الأقدمين ويشرحونها ويصححونها ويضيفون إليها، وساعدت اللغة العربية بما تمتاز به من قوة ودقة بناء وسهولة تناول على التعبير عن الفكر العلمي.

وهكذا لم تقتصر جهود العرب على مجرد الترجمة أو النقل بل إنهم ابتكروا أيضا الكثير وتفردوا بمذاهب في البحث والإنتاج الخصب في ميادين الشريعة وعلوم الدين وفقه اللغة، وظهرت مآثرهم الضخمة في الطب والكيمياء والفلك والرياضيات والجغرافية والتاريخ.

وفي الوقت الذي أحرزت فيه الدولة العباسية هذا التقدم العلمي الرائع كان أوربا تتخبط في ظلام الجهل، وكان أقصى ما يطمح إليه رجال الدولة فيها أن يتعلموا مجرد كتابة أسمائهم كما كانت الحال في عهد شارلمان الذي يعتبر عهده من أزهى العصور في أوربا في العصور الوسطى[1].

وحين تعرف الأوربيون على هذا الإنتاج العلمي العربي أقبلوا على اقتباسه وكان له الفضل الأول فيما بعد في إنارة الطريق أمامهم وانتشالهم من وهدة الجهل.

وهكذا أخذ العالم الإسلامي يترجم إلى العربية كتبا فارسية وسريالية وعبرية ويونانية، وكانت السيادة للثقافة اليونانية في مجال الترجمة في الفلسفة والطب والرياضيات في حين كان للثقافة الفارسية والشرقية بعامة دور واضح في مجال الآداب.

---

(١) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى الجزء الأول ص ١٧٦ وما بعدها.

وكان لأهل الذمة من النصارى واليهود والصابئة دور كبير في حركة الترجمة كما سبق أن قدمنا.

ومن أوائل المترجمين أبو يحيى بن البطريق (ت ح ١٨٤هـ/٨٠٠م) وكان يترجم عن اليونانية، ويقال أنه ترجم للمنصور كتب جالينوس وأبقراط، التي ترجع إلى حوالي سنة ٤٣٦ق.م.

ومنهم أيضا يوحنا بن ماسويه وهو سورياني واشتغل بالترجمة في عهد هارون الرشيد وقد أسند إليه الخليفة حفز الكتب القديمة التي عثر عليها بأنقرة وعمورية وكان أكثرها في الطب، وعاش ابن ماسويه حتى عهد المتوكل وكان معلما لحنين بن اسحق.

أما حنين بن اسحق فكان بحق شيخ المترجمين (١٩٣-٢٦٠هـ / ٨٠٩-٨٧٣م) وهو من قساطرة العرب، ويقال أنه كان أعلم أهل عصره في الطب.

هذا يعني أن التأثير والتأثر في الحضارات الإنسانية أمر ضروري وأن محاولة فرض حضارة على حساب الحضارات الأخرى ضرب من المحال.

وأنه لو كان الاستغناء من شأن الحضارات لكانت أولى الحضارة الإسلامية لما تمتاز به من خصائص ليست توجد في سواها ومع هذا فما انعزلت عن نفسها ولا تقوعت داخل حدودها بل قامت بدورها الطبيعي في أن تأثرت بغيرها وأثرت في غيرها وتلك سنة طبيعية في حياة الحضارات.

شهادة مفكري الغرب للإسلام وحضارته

سوف نستعرض فيما يلي بعض مقالات نخبة معروفة من الغربيين في الإسلام وكتابة ونبيه ، وهم نخبة من العلماء والمفكرين والمستشرقين على امتداد أكثر من قرنين من الزمان . ومما لا شك فيه أنه من المفيد للمسلم ولغير المسلم أن يلم بمختلف جوانب المنظور الغربي للإسلام . وتؤكد خبرات الحياة الإنسانية أن الأغلبية العظمى من الناس تعيش في نعماء لا تقدرها حق قدرها إلا ذا بدأت تتعرض إلى زوال ، أو صارت موضع غبطة من آخرين حرموا منها . ويعبر الناس عن ذلك في أمثالهم الجارية - كما في موضوع الصحة مثلا - بقولهم : الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفه إلا المرضى... وفي الوقت الذي تعتبر فيه هذه الشهادة حجة لنا حيث شهد العدو لصالحنا فإنها أيضا حجة على الغربيين الذين يزعمون أنهم أرباب الحضارة وصناعها .

ونريد الآن أن نورد خلاصة لأقوال تلك النخبة من رجالات الغرب بتصنيفها موضوعيا ، وهذا بدوره يبين أن هناك - بوجه عام - وحدة فكر وعناصر اتفاق بينهم حول كثير من الموضوعات.

يقول (مارسيل بوازار) في كتابة " الجوانب الإنسانية في الإسلام " تحت عنوان الإسلام دين وحضارة . لا شك في أن الوحي الديني قد ظهر في منطقة الشرق الأوسط مهد ديانات التوحيد الثلاث. ولعل الإسلام يعتبر هو التجلي الأخير والأكمل للحضارة في هذه المنطقة من العالم ولقد نفذت أفكاره إلى أوربا وآسيا باللغة العربية عبر البحر الأبيض المتوسط وفوق جبال البرانس . والإسلام باعتباره دينا .. فإنه يحدد وضع المؤمن أمام القيوم وكذلك علاقات التضامن بين الناس .. وهكذا يظهر لنا الإسلام كعمل باهر ومتوافق سياسيا واجتماعيا .

وفي كلمة موجزة – يقول بوازار– إن الإسلام حضارة أعطت مفهوما خاصـــا للفرد ، وحددت بدقة مكانة في المجتمع ، وقدمت عددا من الحقائق الأولية التي تحكـم العلاقات بين الشعوب ، كما أن هذه الحضارة لم تقدم فقط مســـاهمتها التاريخيـــة في الثقافة العالمية ولكنها كانت تؤكد أيضا ولها مبرراتها على تقديم حلـــول للمشـــاكل الرئيسية للأفراد والمجتمعات والمشاكل الدولية التي تثير الاضطرابات في العالم المعاصر.

ومن الناحية التاريخية فلقد أنجب هذا الدين أمة ، وأوجـــد أســـلوبا للحيـــاة والعمل والتفكير وفي كلمة واحدة فقد أنجب حضارة [1].

يوقول هربرت فيشر في كتابة (تاريخ أوربا) وما بين أحد طرفي أوربا حـــتى طرفها الآخر وجدت الدول المسيحية نفسها تواجه التحدي من حضارة شرقية جديدة تأسست على دين شرقي جديد . وخلال السنوات الأولى من التوسع العربي ما كـــان الفاتحون في حاجة إلى بذل مجهود كبير من التوسع العربي ما كان الفاتحون في حاجـــة إلى بذل مجهود كبير لكسب مهتدين إلى الإسلام فعلى العكس من ذلك كان نجاحـــهم في الحكم متوقفا إلى حد كبير ... على سياستهم الحكيمة في التسامح التي مارســـوها تجاه اليهود والمسيحيين وهكذا انتشرت الحضارة الإسلامية وكانت مراكزها السياسية في دمشق وبغداد ومصر ، ولقد ساهم فيها العرب والفرس والترك والبربر والأســـبان ليقدموا جميعا العصر الرائع للآداب والفنون الإسلامية ، التي مكنت شعوب الإســـلام

(١) M.Baisard: L.Humanismede Laslam p.p 21-28
ومارسل بوازرا أستاذ جامعة سويسري ، وقد عمل كممثل للجنة الصليب الأحمر في عدد من الـــدول العربية ثم عمل مديرا لمركز التثقيف الدبلوماسي بمعهد الدراسات الدولية في جنيف انظر ص ٦٦ مـــن الإسلام في الفكر العربي.

من السيادة الفكرية للعالم طيلة أربعة قرون بينما كان العقل الأوربي غارقا في قيعان الجهل والكسل.[١]

ويقول أيضا ما إن انقضت مائة عام حتى استطاع هؤلاء المتوحشون المغمورون أن يصبحوا قوة عالمية عظمى .

ويقول روجيه باسكيه تحت عنوان الحل الإسلامي إن الإسلام ليس غريبا ومع ذلك يصبح من الظلم اعتباره محصورا في الشرق والإسلام سهل وواضح ولكنه في نفس الوقت يخفى بين ثناياه كنوزا من الحكم الصوفية وما وراء الطبيعة التي طالما نهلت منها أجيال كثيرة من أهل التأمل وعباد الله الصالحين .

والإسلام بأبعاده الأفقية والرأسية قادر على عمل توافق قوي بين الإنسان والكون المحيط به وكذلك بين الإنسان والآلة خالق كل شيء ومبدعه . إن الإسلام عالمي بكل معنى الكلمة ...

وإذا كان الإسلام يضع الإنسان على طريق الآخرة التي هي خير وأبقى فإنه يوفر له أيضا وسائل الاستمتاع بأفضل ما في الحياة وذلك بتنظيم التوافق بينه وبينها على المستويين الفردي والجماعي.

وهكذا فمهما حدث في العالم الغربي المزدهر وفاسد الأخلاق ، أو حدث للشعوب التي تعاني الفقر المادي والتي يطلق عليها العالم الثالث فإن الإسلام يقدم الحل الأكثر وضوحا وجوهرية وحتمية من أجل مواجهة التحدي الحديث.

---

(١) (1 – 150) . H. Fisher : Ashart Histary of Eurapa.

وهربرت فيشر مؤرخ وسياسي إنجليزي عمل بعد الحرب العالمية الأولى مندوبا مفوضا لدى عصبة الأمم المتحدة ، ثم عميدا لإحدى الكليات في جامعة أوكسفورد أنظر ص ٢٧ من الإسلام في الفكر الغربي. لأحمد عبد الوهاب.

وبالنسبة لهؤلاء الذين يعتنقون الإسلام ويطبقونه عمليا ، فإنه يقدم لهم العلاج الأكثر فاعليه وشفاء من شرور هذا العصر[١] .

يقول بريفولت في كتابه (بناء الإنسانية) موضحا أثر الحضارة الإسلامية على الغرب.

لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة العربية على العالم الحديث ... ولم يكن وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة ، بل هناك مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية ... ولي ثمة ناحية وليس واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة . وإن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه يدين هذا لها بوجود نفسه[٢].

بل أن عددا كبيرا من المشرقين الغربيين أعترف بأن الإسلام ليس دينا فحسب بل هو نظام سياسي واجتماعي أيضا .

يقول فيتزجرالد في كتابه قانون المحمديين: على الرغم من أنه قد ظهر في العهد الأخير ، بعض أفراد من المسلمين ممن يصفون أنفسهم أنهم عصريون ، يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين[٣] ، فإن صرح الفكر الإسلامي كله قد بنى على أساس أن الجانبين متلازمان ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

---

(١) pasquier : Decauverte de laslam pp 24

(٢) الفلسفة الحديثة عرض ونقد . للدكتور أحمد رمضان ص ٤١

(٣) يقصد العلمانيين .

وشهد بذلك (تلينو) الذي قال أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أسس في وقت ما دينا ودولة . وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته .

وذلك ما عبر عنه (شاخت) حين قال : على أن الإسلام يعنى أكثر من دين ، أنه يمثل أبدا نظريات قانونية سياسية وجملة القول أنه نظام كامل يشمل الدين والدولة معا .

محمد النبي والحاكم :

ويقول برناردشو :

- يجب أن يسمى منقذ الإنسانية . وإني أعتقد لو أن شخصا مثلة تولى الحكم المطلق للعالم المعاصر، لنجح في حل مشاكله بطريقة تجلب له ما هو في أشد الحاجة إليهما من سلام وسعادة ، ويقول أيضا إن الإسلام الدين الوحيد الذي يبدو لي أنه يمتلك القدرة على استيعاب تغير أطوار الحياة بما يجعله محل أعجاب لكل العصور .
- لكن محمدا كان هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي بلغ أعلى درجات النجاح على المستويين الديني والدنيوي .

وبسبب هذا الجمع الذي لا نظير له بين الدين والدنيا، أرى أن محمدا من حقه أن يعتبر أعظم الشخصيات البارزة أثرا في تاريخ الإنسانية .

وفي بيان أثر القرآن على الحضارة يقول مرجليوث:

- باعتراف الجميع ، يحتل القرآن مكانة هامة بين الكتب الدينية العظيمة في العالم. لقد خلق طورا جديدا في الفكر الإنساني ، ونوعا حديثا من الشخصية

الإنسانية . ففي بداية الأمر ، حول القرآن عددا من القبائل الصحراوية غير المتجانسة في شبه الجزيرة العربية إلى أمة من الأبطال.

ويقول مونجمري وات:

- إني أعتقد أن القرآن وغيره من تعبيرات المنظور الإسلامي ، ينطوي على ذخيرة هائلة من الحق الإلهي ، الذي مازال يجب على أنا وغيري من الغربيين أن نتعلم منه الكثير.

يقول فولتير :

- لا يزال القرآن ، في واقع الأمر ، يشتهر إلى اليوم بأنه الكتاب الأكثر تميزا وسموا ، الذي كتب بهذه اللغة (العربية) .
- هذه هي كلمات السورة رقم ١١٢ تقول : " الله أحد .اله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد. " إنني أقول أن هذه الكلمات أخضعت له الشرق أكثر مما فعله سيفه . (فولتير)

ويقول أدوار مونتين :

- احتفظ القرآن بمترلته الثابتة ن كنقطة البداية الرئيسية لفهم الدين ، وصار يعلن دائما عن عقيدة توحيد الله في سمو وجلال وصفاء دائم ، مع اقتناع يقيني متميز من الصعب أن يوجد ما يفوقه خارج نطاق الإسلام. (ادوارد مونتيه)

وعن صفاء العقيدة الإسلامية وقوتها : يقول إدوارد جيبون :

- إن الانطباع النقي الكامل الذي يحفره (محمد) في الأذهان في مكة والمدينة ، لا يزال مصونا إلى اليوم بعد انقضاء أثنى عشر قرنا. (ادوارد جيبون)

- إن عقيدة محمد خالية من الشك أو الغموض، والقرآن شهادة مجيدة على وحدانية الله .

ويقول رنارد لويس مؤكدا أن الإسلام لا يفرق بين الدين والسياسة وأنه ليس في الإسلام حكومة دينية .

- بالنسبة للمسلم ، فإن الله هو قيصر. ولن يعترف بأي مصدر آخر للسلطة سوى الله .

- وإذا كانت المهمة الروحية قد انتهت (بوفاة النبي) فلا تزال هناك مهمة دينية أخرى يجب تحقيقها ، ألا وهي الحفاظ على الشريعة الإلهية والدفاع عنها ... ولقد تطلب إنجاز مثل هذا العمل ممارسة قوة سياسية ، أو باختصار ممارسة سيادة داخل دولة

ويقول بوازار في كتابه الجوانب الإنسانية في الإسلام

- يمثل محمد الحكومة المركزية التي تتمتع بامتيازين أساسيين هما :

صلاحية إعلان الحرب أو إقرار السلم ، والاحتفاظ بحق إصدار الأحكام القضائية النهائية .

لم يكن محمد حاكما مستبدا (اوتوقراطيا) ، لأن الله كان هو المصدر الوحيد للسلطة ، سواء بالنسبة لرئيس الجماعة أو لأعضائها .

إن السيادة حسب المصطلح الغربي تعنى سلطة وحيدة لا يعلى عليها . وفي العقيدة الإسلامية ، فإن الله هو المصدر الأسمى لهذى السيادة ، والتعبير عن إرادته ماثل في القرآن . وليس للنبي وخلفائه والرؤساء. السياسيين أي سلطة إلا بالتفويض . ولما كانت الشريعة مفروضة على الجميع ، فإن كل مؤمن هو خليفة الله في الأرض ،

وأولوا الأمر في المجالين الروحي والزمني (الديني والدنيوي) لا يملكون سلطة مطلقـــة، وإنما هم في خدمة الجماعة لتنفيذ أحكام الشريعة.

إن هذه الدولة ، مهما يكن شأنها ، لا يمكن أن تمثل حكومة دينية (ثيوقراطية)، كما زعموا ذلك في أكثر الأحيان بغير حق في الغرب.

إن المصطلح ذاته (حكومة دينية) فيه مفارقة . فالخليفة ليس رئيسا دينيـــــا. وفوق هذا لم يحدث أبدا إن حكمت المجتمع الإسلامي طبقة كهنوتية لسبب واضح هو أن الكنيسة مؤسسة غريبة عن الإسلام .

لقد بينت التجربة التاريخية أن العالم الإسلامي عرف من الطغيان والاضطـــهاد والظلم أقل قليلا مما عرفته نظم الحكم الأخرى .

فالحكومة الإسلامية ليست حكومة " دينية " حيث أن صلاحيتها الوحيدة هـي تطبيق أحكام الشريعة الموحى بها

وتحت عنوان المستقبل للإسلام: يقول برنارد شو:

- لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا في أوربا الغد ، كما أنه بدأ يكـــون مقبولا في أوربا اليوم.

ويقول وات :

- من المؤكد أن الإسلام منافس قوي في مجال إعطاء النظام الأساســـي للديـــن الوحيد الذي سود في المستقبل.

ويقول باسكيين :

- من المسلم به حاليا ويوجه عام ، أنه بينما تتراجع الديانات الكبرى أو علـــى الأقل تتخذ موقف الدفاع ، فإن الإسلام ذاته في تقدم .روجيه دى باسكيـــه

ولبيان أن الإسلام بحضارته لا يمكن أن يحدث تعاون عالمي إلا إذا اعتبر الإسلام الركن الركين فيه يقول (هاملتون جب).

- إذا قدر أن يحل التعاون يوماً ما محل التعارض القائم بين المجتمعات الكبيرة في الشرق والغرب ، فإن وساطة الإسلام تصبح شرطاً لا غنى عنه ، إذ يكمن بين يديه ، إلى حد كبير ، حل المشكلة التي تواجه أوربا في علاقتها بالشرق .

ويقول روجيه باسكيين :

- إن الإسلام بأبعاده الأفقية والرأسية ، قادر على عمل توافق قوي بين الإنسان والكون المحيط به وكذلك بين الإنسان والآلة خالق كل شيء ومبدعه. إن الإسلام عالمي بكل معنى الكلمة.

فمهما حدث في العالم الغربي المزدهر وفاسد الأخلاق ، أو حدث للشعوب التي تعاني من فقر المستلزمات المادية للحياة مثل تلك التي يطلق عليها "العالم الثالث"، فإن الإسلام يقدم الحل الأكثر وضوحاً وجوهرية وحتمية ، من أجل مواجهة التحدي الحديث.

وبالنسبة لهؤلاء الذين يعتنقون الإسلام ويطبقونه عملياً ، فإنه يقدم لهم العلاج الأكثر فعالية وشفاء من شرور هذا العصر.

ويقول بوازار :

- لقد عرف الإسلام بمحافظته على العقيدة ، كيف يقاوم تحطيم جماعته السياسية. ولم يكن الإسلام منذ ظهوره وتحت إدارة النبي إلا ثورياً معتدلا على المستوى الاجتماعي . فهناك تكليف مفروض بالتكافل والتضامن على جميع أعضاء المسلمة ، من أجل تأمين الرخاء والكرامة لجميع الأفراد في حدود

الإمكانات المتاحة. ويمثل هذا مظهراً متمماً لطابع الجماعة المسلمة وشيئاً تتميز به مبادئ الأخلاق التي طبعها الوحي القرآني.

ولقد أقام الإسلام نظاماً اقتصاديا مرتكزاً على الأخلاق ، وذلك بتنظيم توزيع الدخل عن طريق نظام ضريبي مقدس هو الزكاة ، وبإدخال مفهوم جديد للملكية الخاصة التي ليست في كلمة موجزة سوى حق انتفاع بالنعم التي أفاءها الله على الإنسان . وبذلك حقق الإسلام ، من وجهة نظر خاصة ، الجمع بين قيمتي راس المال والعمل .

وبعد فهذه شهادات بعض المنصفين من الغرب قد سقناها لعدة أهداف كما قلنا .

أولاً : أنها شهادة حق لصالح الحضارة الإسلامية .

ثانياً : أنها حجة على الآخر ودليل إهمال الآخر إن لم نقل تعمده في تشوية صورة الحضارة .

ثالثاً : شهادة من الجانب الغربي على أن الإسلام لم ينشر حضارته بالسيف والقوة .

رابعاً: هنا جانب إيجابي يمكن أن يعد نقطة مشتركة بين الحضارة الإسلامية والغرب وهي شهادة هؤلاء الغربيين الذين لم يضطروا إليها اضطرارا ولكنها صدرت عن قناعة تامة بأهمية الإسلام وحضارته .

خاتمة

إن إشكالية التدافع الحضاري بين الإسلام والغرب من أهم المشكلات التي تواجه المثقفين العرب والمسلمين والذين يحملون همَّ مستقبل الإنسانية والعلاقة الجدلية التي كانت تربط الغرب الإسلام منذ بزوغ فجره هي أشبه بعلاقة منطق القوة بقوة المنطق ذلك أن الغرب لا تسيِّره في التعامل مع الآخر سوى منطق العضلات وإظهار القوة واستبعاد الآخر . هذا ما يشهد به التاريخ ويقره الواقع المشاهد . هذا بخلاف الإسلام الذي هو أبعد ما يكون عن العنصرية واستبعاد الآخر .

بل هو جاء ليحرر الإنسانية من ربقة الاستعباد بكل أصنافه حيث أعلن (ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله) .

ولا يخفى أن الحضارة الغربية تحمل بعض الإيجابيات التي قد نفتقدها في واقعنا مثل التقدم التكنولوجي وهذه يمكن أن تكون نقطة انطلاق للحوار المستقبلي بين الإسلام والغرب.

فحتى يمكن الحوار فلابد من إقرار الغرب بافتقاده إلى الجانب الروحي كما أننا نقر بافتقادنا إلى الجانب التكنولوجي خاصة بع أن تخلفنا بسبب نكوصنا على أعقابنا بعد أن هدانا الإسلام لأسباب التقدم.

إن كلاً الطرفين في حاجة إلى هذا الحوار وهذا اللقاء . ولنعلم أن المستقبل للإسلام سواء تم هذا لحوار أم لا. لأن الحق سبحانه هو المتكفل بإبقاء ما ينفع الناس ومن المعلوم. أن الإسلام في توجهاته الحضارية لم يترك لأصحابه أمراً ذا بال يمكن من خلاله المحافظة على البناء الحضاري إلا ودلهم عليه.

ولقد مارس رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعـــده عمليـــات الربـــط الحضاري على المستوى النفسي والاجتماعي وحقق فيها أعلـــى مســـتوى الاتقـــان المنهجي والثقافي، وترك لنا نموذجاً لبناء حضاري عالمي شامخ بمقدوره أن يقـــدم لنـــا الهداية الحضارية كلما استدعيناه بوعي وفهمناه بعمق.

وإذا كان يحق لنا بجدارة أن نتباهى بتراثنا الحضاري الذي أرشدنا إليه رســـول الله صلى الله عليه وسلم واستطاع أسلافنا أن يطبقوه واقعاً فإن هذا كله لن يعفينا من مسئولية المحافظة على هذا التراث، ثم استجلاب النافع من كل حضارات الأمم النافعة والتي لا تتعارض مع ثوابتنا وقيمنا.

ثم إن هذا أيضاً لن يعمينا عن واقعنا المرير الذي نعيشه الآن حيـــث صـــارت الكلمة لغيرنا وما نحن إلا مفعول به طوال الوقت.

والله عز وجل لا يحابي أحداً. ذلك أننا تقهقرنا عن موقع القيادة الـــتي طالمـــا احتله السابقون الأولون.

وإن هذا التقهقر كما أنه ليس ذاتياً في الأمة غير أنه نتيجة لعوامل وأســـباب ليس من بينها الإسلام قطعاً.

بل أن هذا التأخر سببه الأول بما كسبت أيدنا. ولذا أذاقنا الله سوء أفعالنا.

ومع ذلك نستطيع القول إن المسلمين الآن يســـتطيعوا الآن لـــو صدقـــت عزائمهم أن يكونوا قدوة بما يمتلكوه من أسرار حضارية ليست توجد في غير الإسلام. الذي تشير كل الدلائل أنه سيكون بعون الله قوة الغد العالمية، وحضارة الغـــد الـــتي ستنقذ البشرية إن عاجلاً أو آجلاً.

وسواء كان ذلك على أيدينا أم بأيد أخرى يســـتخرجها الله مـــن حيـــث لا نحتسب. وقد قال سبحانه {وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم}

بسم الله الرحمن الرحيم { كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال }.
صدق الله العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبد العزيز المرشدي
مكة المكرمة
١ غرة شهر ربيع الأول من عام
ثلاثة وعشرين وأربعمائة وألف من هجرة
المصطفى صلى الله عليه وسلم

فهرس المراجع

- أصالة الحضارة العربية الأستاذ/ ناجي معروف.
- من أجل حوار بين الحضارات، المفكر/ روجيه جارودي، ترجمة د/ذوقان قرقوط – دار النفائس.
- الإسلام والغرب، الدكتور/ محمود حمدي زقزوق.
- الإسلام والحضارة الغربية. محمد محمد حسين، المكتب الإسلامي – بيروت.
- صرع الحضارات أم حوار الحضارات، د/حسن حنفي. بحث مقدم لمؤتمر حوار الحضارات.
- الإسلام في الفكر الغربي للواء أحمد عبد الوهاب.
- الإسلام حضارة الغد، للدكتور/ يوسف القرضاوي.
- في تراثنا العربي، د/توفيق الطويل – دار المعارف.
- فخر الضمير هنري برستيد، ترجمة سليم حسن.
- الفلسفة الشرقية، الدكتور محمد غلاب.
- حضارة العرب، جوستاف لوبون.
- مقدمة ابن خلدون، لابن خلدون. تحقيق، د/عبد الواحد وافي – دار نهضة مصر.
- دارسات فلسفية، للدكتور/ سعيد مراد. مكتبة وهبة – القاهرة.
- المستشرقون مالهم وما عليهم، الدكتور/ مصطفى السباعي.
- المغني للقاضي عبد الجبار، تحقيق جماعة من العلماء، المجلس الأعلى للثقافة – مصر.
- انتشار الإسلام، توماس أرنولد.
- سماحة الإسلام، الدكتور/ أحمد الحوفي. وزارة التربية والتعليم – مصر.

- العولمة وأثرها على العقيدة، الدكتور/ عبد العزيز المرشدي.
- الفلسفة الحديثة، الدكتور/ أحمد رمضان، مطبعة الإيمان بالمنصورة.
- افتراءات المستشرقين على الإسلام، د/ عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة
- مستشرقون، نذير حمدان، مكتبة الصديق، الطائف.
- الاستشراق ميزان الفكر الإسلامي، د/محمد الفيومي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- دراسات في الحضارة الإسلامية، د/ حسن باشا، دار النهضة – القاهرة.
- الاستشراق والمستشرقون، د/ عدنان وزان، رابطة العالم الإسلامي، يناير١٩٨٤م
- الاستشراق والدراسات الإسلامية، د/علي النملة، مكتبة التوبة – الرياض.
- أضواء على الاستشراق والمستشرقون، د/محمد دياب، دار المنار، القاهرة.
- المنهج النبوي والتغيير الحضاري، د/برغوث مبارك، سلسلة كتاب الأمة، قطر.
- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، د/محسن عبد الحميد، كتاب الأمة، قطر.
- دراسة في البناء الحضاري، محمود محمد مسفر.
- الغرب في مواجهة الإسلام، معالم ووثائق، تأليف مازن صلاح، مكتبة ابن القيم – المدينة.
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د/محمد البهي، ودار الفكر، بيروت.
- قوى الشر المتحالفة، تأليف محمد محمد الدهان، دار الوفاء، المنصورة.
- قصة الحضارة، تأليف(ول ديورانت) ترجمة محمد زيدان، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية.
- التعريفات للجرجاني.
- لسان العربن،ابن منظور.

• فلسفة الحضارة ، لأسينيتشر. ترجمة عبد الرحمن بدوي.
• الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. د/محمود زقزوق، دار المنـار - القاهرة.
• نظرة الغرب إلى الإسلام والقرون الوسطى، لساذرن. ترجمة علـى فـهيم، دار الفكر، طرابلس - ليبيا.
• الإسلام على مفترق الطرق ليوبولدفايس (محمد أسد) ترجمة عمـر فـروخ، دار العلم للملايين.
• إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي. مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبـور شاهين، بيروت ، دار الفكر - دمشق.
• العلمانية، د/سفر الحوالي، دار مكة للطباعة والنشر.
• موقف المسلم من الدراسات الاستشراقية، محمد علوي مالكي، مطبعة حسـان، القاهرة.
• تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات ، أنور الجندي، مكتبة التراث الإسلامي.
• شروط النهضة، مالك بن نبي - ترجمة عمر كامل وعبد الصبـور شـاهين، دار الفكر - دمشق.
• الفهرست ، ابن النديم.
• فتوح البلدان للبلاذري.
• الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.
• الخراج لأبي يوسف.
• أهل الذمة في الإسلام، تريتون.
• شمس العرب تسطع على الغرب، سيجريد هونكة.

الفهرس